ياسمينة خليل

# كبرياء أندى

# كبرياء أنثى

(رواية)

ياسمينة خليل

**العنوان: كبرياء أنثى**

**المؤلف: ياسمينة خليل**

**تصميم الغلاف: بنبري أيوب**

**التنسيق الداخلي: منشورات كتبيديا**

تم نشر هذا العمل ورقياً تحت رقم 978-9931-689-07-2 عن دار المثقف للنشر والتوزيع، وأعيد إصداره إلكترونيا عن منشورات كتبيديا بناء على طلب المؤلف وموافقة الناشر.

© 2019 منشورات كتبيديا

(إحدى مشاريع كتبيديا)

دار المثقف للنشر والتوزيع

المدير العام / سميرة منصوري

# إهداء

إلى أولئك الذين يتحملون مزاجيتي وفوضى كتبي وأوراقي وكل إزعاجي داعمين راضين...إلى أهلي.

إلى شلة المجانين المحيطة بي والتي لن يطول الزمان بنا حتى يجمعنا رواق واحد، في مصحة واحدة...إلى شلتي.

إلى الذين يصنفهم العرف أصدقاء افتراضيين وهم يعيشون بأرواحنا وأيامنا غصبا عن ذلك العرف...إلى سكان الفايسبوك عامة وصعاليكي خاصة.

إلى كل من رأى حرفا بيدي فرفعه عاليا حتى تلمحه عيونكم أنتم..

أرفع هذا الكتاب...

# مقدمة

قبل سنوات ليست ببعيدة، كان دور المرأة مقتصرا على أعمالها المنزلية، قيامها بإنشاء أسرة طيبة العروق، فروعها نظرة، يعود الفضل في طيبها وثمرها لتلك الأم والزوجة قبل كل شيء، القليلات هن من استطعن إثبات وجودهن خارج جدران بيوتهن، لكن كانت المرأة وقتها راضية بكل ما في حياتها رغم بساطته وقلته أحيانا، تلزم بيتها وتربي أبناءها، سعيدة بتلك الجلسة حول طاولة الإفطار الذي تحضِّره بكل شغف، تعرف كل فرد من عائلتها ماذا يحب وكيف يحبه، تحيك ما يلبسه أحبابها سعيدين هم بطيب ريحها فيه، لم تكن تشتكي قيامها الباكر لتحضير القهوة الساخنة لزوجها وتصفه بالعمل الشاق، بل حتى أنها كانت تحضرها وتقف على بعد منه تتأمله وهو يرتشفها دون أن تنال شرف المشاركة...

تربى الفتاة منذ نعومة أظفارها على المسؤولية، تكون أوّل الأمر أما ثانية لإخوتها، مساعدة في كل أعمال البيت دون دلال أو تهاون، تتلقن فنون الطبخ وأسراره حين تدرك الفرق بين

الملح والسكر، لا تكاد تبلغ سنا معينة حتى ينتج عنها نسخة مصغرة عن أمها، التي تصبح بدورها تفتخر بابنتها بين النساء في الأعراس وتلك الجمعات في سهرات رمضان، أو حفلات الختان وفي كل فرصة تتاح لها، كي تنال طفلتها (في أغلب الأحيان تكنَ في عمر يافع) إعجابهن وتضمن أن تتزوج ابن إحداهن، لتكمل المسيرة التي بدأتها هي قبلها بحذافيرها...

# - ١ -

في أحد الأحياء الشعبية بوهران، حيث تنتشر السكنات المشتركة لعائلات كثيرة تبدو للغريب كعائلة واحدة لا يفرق بين أفرادها سوى اللقب المختلف، كانت سليمة من بين تلك النساء المكافحات الرائعات، بريئة طيبة، لم تختلف كثيرا عن النظام السائد للمرأة وقتها، ذات جمال بسيط، يكفيها خط رفيع من الكحل يزين عيونها السوداء، من فوقهما حاجبان رقيقان كأنهما رُسِما بريشة فنان، و من تحتهما خدودها الحمراء طول الوقت تبدوان كحقول من الورد الجوري وسط بشرتها البيضاء كالياسمين، كأنها خجلة من كل شيء تشع أنوثة طبيعية دون تملق، تعمل كالنحلة طوال يومها دون كلل أو ملل، ليكون من أهم إنجازاتها بسمة الرضا على ثغر زوجها عمر الذي هو الآخر لم يبخل عليها بجهده حتى تكون زاهية راضية عنه

بدورها، عمر الذي كان في نظرها أحد أبطال أفلام السينما، تلك التي كانت تشاهدها خلسة عن أهلها، كانوا يتهمون تلك الأفلام بنشر وعي لا يناسب ثقافتهم، رغم أن عمر كان عاديا في الحقيقة يشبه أغلبية الشباب وقتها دون تميز، أسمر أصيل بشارب يزيد رجولته ملفوف من الجانبين وعيون واسعة يعلوهما حاجبان مقترنان، مكتنز الجسم ذو طول معتدل، يمثلان عائلة لا يمكن وصفها إلا بالمثالية.

يعمل عمر موظفا حكوميا بدوام يومي كامل، معروف عنه نزاهته وانضباطه وإتقانه لكل ما يفعله حتى لو كان عملا صغيرا تافها في نظر الآخرين، جعل نصب عينيه أن يكون والداه فخوران به، تزوّج سليمة بعد حب من أوّل نظرة كما يقال، فقد كانت جارته في نفس البناية ورغم أنه في مجتمع عرِف بالحرمة والحياء، وكل تلك الحواجز التي تضعها العائلات حتى تفصل بناتها عن أولاد الجيران، إلا أن القدر أبى إلا أن يجمع بينهما، عندما صعدت لتجمع الثياب التي كانت تجفف على أسطح البنايات، وصعد هو قبلها بفرق بسيط من الدقائق ليدخن سيجارة خفيةً عن أهل الحي حتى لا يصل الخبر لوالده

الحاج سليمان، ليس خوفا منه ومن تأنيبه بقدر ما هو احترام لمكانته بين السكان وحتى لا يعيب أحد تربيته.

لم تنتبه لوجوده و هو يدس جسمه بصعوبة في إحدى زوايا السطح خلف برميل حديدي كبير محاولا قد الإمكان أن لا يصدر عنه أي صوت، لم يستطع الظهور والنزول حتى لا تلمح سيجارته أو أن تفكر فيه تفكيرا سيئا ويشطح خيالها بعيدا وتفضحه فضيحة أكبر من فضيحة التدخين، توقف عن الحركة بعد أن أحس أنه خبأ نفسه جيدا واستمر في مراقبتها وهي تقوم بعملها بكثير من السعادة، تغني إحدى أغاني وردة التي ذاع صيتها وقتها "لولا الملامة يا هوى لولا الملامة لافرد جناحي عالهوا زي اليمامة..."، لم يكن مهما بالنسبة لها إن كان صوتها يحوي شيئا جميلا أو تلك العُرب والخامة النادرة، أو حتّى أنّها تغني في المقام الصحيح، المهم أن لا أحد يسمعها وأنّها أخيرا وجدت أين تنفِس عن روحها بعيدا عن كلمة عيب ولا يليق وصوت المرأة عورة، أو على الأقل هذا ما اعتقدته.

تأكّدت أن كل الثياب الجافة في سلتها بعد أن لعبت بها قليلا في الهواء و هي تراقصها، حملتها ونزلت الدّرج و صوتها يخفت مع كل خطوة إلى أن اختفى تماما، بينما وقف عمر في أعلى

السّلالم ليعرف في أيّ طابق بيتها، ثم عاد إلى مكانه أطفأ سيجارته، أخرج من جيبه علكة لتجمع مخلفات رائحة التبغ من فمه، ثم نزل و هو يفكّر في تلك الصبية الخفيفة الظل الممتلئة بالبراءة، شعر أن قلبه قد علق بصوتها وحركاتها الجنونية وهي تعبث بالثياب، لكن أمرا كهذا يستطيع أن يقلب حياته كليا، فحتّى لو عرف شقتها ليس سهلا طلب يدها، موضوع الزّواج يحتاج جرأة كبيرة حتى يطرحه فكيف باقتراح الفتاة فوق ذلك، كيف يشرح للجميع الطريقة التي عرفها بها، حاول بعدها أن يتناساها لكنّه كلما صعد إلى السطح تذكرها حتّى أنّه كان يتمنّى أن تجمعهما صدفة أخرى، يتوسّل لله كي يحدث ذلك، وبعد أيام قليلة و كأن القدر لم يشأ أن يرد يديه خاوية الوفاض، ونفس المشهد قد تكرّر بيْد أنّه لم يملك الوقت هذه المرّة للاختباء، كان مشغولا باستقبال ملامحها التي اشتاق إليها، لكن هذه المرّة كانت رفقة صبية أخرى ربما أختها أو إحدى الجارات، كانت أكثر فطنة من سليمة، لم تكد تطأ قدماها السطح حتى تفحصت كل رقعة منه، فلمحت عمر هناك، شرعت بعدها في شيء يشبه الولولة لكن بصوت خافت خوفا أن يسمعها أحد من الجيران.

*سليمة...سليمة، رجل في السطح فلننزل بسرعة قبل أن يرانا أحد، لو حدث ذلك لقطع أخي رأسي همه.*

ظل هو ثابتا، لا يدري أين يذهب بنفسه، لكن علامات الفرح كانت بادية على وجهه رغم توتره، فقد رآها مرة أخرى وعرف اسمها أيضا، هذه المرة لم يفكر كثيرا، أراد أن يعيش هذه الفرحة مجدّدا ومتى شاء له ذلك لا بل كل يوم، انتظر حتى سكنت الحركة في السلالم، ونزل بسرعة إلى أمه، مصمما أن يفتح معها موضوعه وسليمة.

بعد التلعثم والخجل اللّذان لم تلبث الخالة عائشة أن لاحظتهما، وكلّ الكلمات التي خذلته ورفضت الخروج من حلقه هاربة إلى قلبه، قرّر التراجع ونسيان الأمر وكأنّه لم يكن، لكن والدته أصرّت عليه، فمن يمكن أن يعرفنا أكثر من أهلنا.

*تكلّم، تكّلم، لا يخجل الرجال هكذا إلّا إذا كان الموضوع عن الزواج، سبحان الله قبل سنتين وقفت نفس الوقفة لكن مع محمد أخوك.*

أحسّ ببعض الرّاحة فقد مهدت له الطريق ولم يبق الكثير ليقوله، أصلا هو رجل والرّجال مواقف لا كلام، فليكن على

قدر رجولته واثقا من نفسه، هذا ما كان يدور في رأسه محاولا أن يشجّع نفسه كي يبدأ الحديث.

*صدقت يا أمي، أظنّ أنني في سن مناسب لذلك كما أن لي عملا...*

لم تترك له مجالا لإتمام كلامه، قامت وحضنته فرحا وهي تزغرد، وتخبره أنّها ستختار له أجمل البنات، فهو غزال لا تليق به إلا أحلى من ولدت النساء، بدر البدور صاحبة القد المنحوت ومن كل إصبع من يدها وجدت له صنعة تشغله، المهم في نظرها أنّه قد طرح الموضوع.

بدأت الفكرة تخيفه، فأمّه تريد أن تكون هي من تختار عروسة له، حتى أنها بدأت بذكر أسماء البنات من بنات أخواله وبنات عمومته، معددة عيب كل واحدة منهن ومحاسنها، وأي أمّ لا ترغب أن تختار كِنّتها كما اختارتها حماتها سابقا، بنت أصل وفصل، حاول أن يتمالك لسانه هذه المرّة لكنه فشل، فألقى اسمها كقنبلة في وجه خالتي عائشة وأغمض عينيه وضغط على أسنانه ويديه كي يفرق التوتر الذي كان يحتله، وهو ينتظرها أن تنفجر بالمقابل.

*"سليمة"*

*عن أي سليمة تتحدث يا ولد؟ بنت الحاج الطاهر جارنا العلوي؟*

واصلت كلماته في خذلانه، حتى نعم تلك الصغيرة البسيطة تكبرت عليه، حمدا لله كان لا يزال يستطيع هزّ رأسه موافقا على كلامها، لو أن الهزة قيست على سلم ريختر لكانت النّتائج فوق المعدل، تقدمت أكثر إليه وأمسكته من أذنه.

*أيها الصعلوك من أين تعرفها؟ أين لمحتها؟*

*لا ...لا أعرفها فقط رأيتها مرّة على السطح.*

*يا فضيحتنا، تراقب الفتيات على السطوح، ونحن من كنا نظن أنك بلغت من النضوج ما يجعلك أكبر من هذه التصرفات الصبيانية، وهل رأتك هي؟ أين أخبأ وجهي من مريم.*

*لا لم ترن ولم أكن أراقبهن، صدفة فقط، وما أجملها صدفة يا أمي.*

هكذا كان ناس زمان، يلام الشاب كما تلام الفتاة، فالشّرف لا يميز بينهما، لا بل يلام هو أكثر لأنّه يملك الحكم على نفسه

على عكس الإناث. وسترت خالتي عائشة تلك الفضيحة في نفسها وهي تحسّ بشيء من الخيبة في ابنها المتعلّم، وقررت أن تسرع في طلب يد سليمة حتى لا يطلبها شخص آخر وابنها قد رآها.

بمجرّد أن دخل الحاج سليمان إلى البيت، لم تترك له حتى فرصة أن يرتاح ويضع رأسه على المخدة لينام قليلا، قيلولته الصّغيرة المعتادة، بدأت بالتلميح أن ابنهما صار رجلا ويجب أن يتزوّج، وقد تجاوب هو معها بالمقابل حتى تتمّ كلامها سريعا.

*أجل يا عائشة معك حق، أ تعرفين فتاة تليق به وبعائلتنا؟*

*بلى، بنت جارنا الحاج الطاهر، ما شاء الله عليها تربية وجمال وشطارة.*

*وحتى والدها رجل لا يعاب فيه شيء، هل فاتحت ابنك بالموضوع؟*

*أجل وقد وافقني، أحتاج رأيك فقط لأزور الجماعة قبل أن يسبقنا لخطبتها أحد.*

*على بركة الله إذا، إن كان هذا كل ما تريدينه، دعيني أنام الآن.*

عمر يقف خلف الباب، قد ألصق أذناه كالرادار عليه يخاف أن تمر كلمة ولا يسمعها، لم تكد الجملة الأخيرة تبلغه حتى ركض بسرعة خارج البيت، كي يصرخ براحته من الفرح، أحس أن حلمه قد صار حقيقة.

تمت الخطبة بموافقة سليمة التي في الحقيقة اكتفت بخفض رأسها خجلا عندما سُئِلت، لتقول الخالة مريم مقولتهم الشهيرة "السكوت علامة الرضا" رغم أن الفتيات وقتها لا حل لهن سوى السكوت حياء وضعفا في آن واحد فحتى لو رفضن فمن يأبه لرأيهن، وبعد شهور من التجهيزات الكثيرة للجميع، فعمر يجهز بيته الجديد، الذي لا يبعد عن بيت العائلة كثيرا، يحاول جاهدا أن لا ينقصه شيء، وسليمة من جهتها تخيط ثياب العرس عند خياطة متخصصة كما أنّها تطرز البقية بمفردها، ذلك من أجل أن تكون على أكمل صورة ممكنة، وتحضر تصديرتها كما يجب أن تتجهز، فالتصديرة شيء مقدس في أعراسنا نختص به عن غيرنا من الدّول في مراسيم الزواج، عبارة عن مجموعة من البدلات لمناطق متعدد من الوطن من

بلوزة وهرانية، للجبة القبائلية، الشدة التلمسانية، الفرقاني القسنطيني، الشامسة العنابية، الكاراكو العاصمي، اللحاف الشّاوي وغيرها الكثير، تتناوب على لبسها طول فترة العرس، وكأنّها عارضة أزياء لأهم ماركة عالمية والعيون ترقب كل تفصيل عن هذا الطقس من العرس. أمّا الآباء فهمهم أن تكون الوليمة على مستوى يليق بمكانتهم بين الأهالي، انشغل الحاج سليمان والحاج الطاهر باختيار الكباش السمينة ذات اللّحم الكثير دون الشحم، وانتقاء أجود أنواع الخضار ليكون مرق الكسكسي ذو لون نظِر، من جهتها خالتي عائشة وخالتي مريم تكفّلا بفتل الكسكسي على الطريقة اليدوية التقليدية، ووضعه لأيّام على السطح، حتى يجف على أشعة الشمس، ومن ثم تحضير الأواني التي يتم جمعها عادة عن طريق طلبها من الجيران فهم يشكلون عائلة واحدة بمجرد أن يسكنوا حيا واحدا، لا يوفّر أي فرد من العائلتين جهدا حتى لا ينقص المعازيم شيء لأنّ ألسنتهم ستجوب البيوت بذكره متغافلين عن كل جميل في العرس كما هو طبع البشر عادة، لو قدّمنا لهم ثوبا ناصع البياض مع نقطة واحدة سوداء، لن يلمحوا غير تلك النقطة...

وتمّ العرس على نفس ذاك السّطح حيث تعارفا، تحت أنغام الأغاني الشعبية، والرّاي البدوي بقصبته، وسط فرحة كل الجيران والأقارب، بكثير من البساطة، أضاف الماكياج على وجه سليمة جمالا من نوع آخر فوق جمالها الطبيعي والحشمة قد أنبتت زهورا على خديها، وكان عمر رسميا أكثر ببذلته السوداء، والكثير من الأطفال يتراكضون هنا وهناك.

لازمت تلك الفرحة سليمة وعمر أيّاما طويلة بعد عرسهما، كانا يجلسان سوية يستمعان لأغاني وردة الرومانسية الحنونة، ثم يطلب عمر منها أن تغنّي له زاعما أن صوتها أحلى بكثير من صوت وردة، إلى أن تجرّأ يوما وأخبرها عن أوّل مرة رآها فيها، نزلت بعيونها إلى الأرض من فرط الخجل، لكنّها أكّدت له أنّها لم تره حتى تظل بريئة في نظره.

بعد سنتين من العسل رزقا بأميرة التي لم تزد حياتهما إلاّ سعادة، ربياها على نفس المبادئ التي تلقياها من أبويهم قبلا، مبادئ الأدب والحشمة والاحترام، وظلّت هي وحيدتهما لفترة طويلة رسخت فكرة أنّها دلوعة البيت حتى رزقا بولد آخر، خالد الذي رغم كونه ذكرا و وُلِد في مجتمع يعتبر ميلاد الذكور فخرا للعائلة إلا أن مكان أميرة لم يهتّز لا في البيت ولا في قلب

أبويها، بقيت هي الكبيرة وفرحتهم الأولى، ثمرة حبهما الجميل، كما أنّها كانت تعامل أخاها كأمّ ثانية، لما غرسته فيها فكرة أنّها الكبرى وأنّها واحدة من أعمدة البيت، ما جعلها تبدو أكثر نضوجا، فزادها ذلك دلالا وخصوصية، وقد تعوّدت على الوحدة والانفراد، لا تسمح لأحد بدخول إطار حياتها، فلم تصادق أحدا غير سليمة وعمر وأتقنت دور الأخت الكبرى على خالد، كانت طلباتها مجابة، جعل والداها منها صاحبة القرار في حياتها منذ أن عرفت أي فستان يناسبها في العيد.

لم تكن تلك الحرية في القرار من فراغ، فبعد دخولها المدرسة أثبتت نبوغا ملاحظا، دائما تحتل المراكز الأولى، ركّزت كل مجهودها أن تظل في المقدّمة حتى لو كلفها ذلك تعبا جسمانيا كبيرا، هذا ما كوَن داخلها بالمقابل شخصية قويّة، وثقة كبيرة بنفسها، استقتها من الثقة التي منحها إياها والداها إضافة إلى إيمانها بقدراتها. ظلت كذلك والسنوات تمر نزولا صعودا كما شاءت لها الحياة، إلى أن بلغت الجامعة، وسجّلت نفسها فرع كيمياء، وكلّها أمل أنّها ستقدم الكثير لهذا العالم.

نظرة

لمحتها على حين غرّة

تراقص الهواء

برشاقة كهرة

سرقت فؤادي من أوّل نظرة

صارت أجمل بها دنياي

وزاد رونقها

أن كان منها طفلاي

لو عاد الزمان بي يوما

لأعدت الكرة

وكانت نظرات بدل نظرة...

# - ٢ -

كبرت أميرة وصارت شابة، لم تملك من الجمال ما يميزها عن البقية، سوى وجنتان محمرتان ورثتهما من سليمة لكنها أخذت بالمقابل بشرة أبيها السمراء، لها عيون بنية واسعة، وقلب لا يضاهيه في الحنان إلاّ قلوب الأمهات، لكن ما يميزها فعلا، هي شخصيتها الفريدة وأفكارها التي كانت خاصة بها، مختلفة عما نقلته لها والدتها، تؤمن باستقلالية المرأة وضرورة عيشها كما تشاء ليس كما شاء هذا المجتمع ما دامت في الطريق الصحيح، هذا ما جعلها تتخذ قرارات غريبة بالنسبة لفتاة في سنها لكنها طبيعية نظرا للحرية التي منحها لها عمر، رفضت أن تتزوج بكل شخص تقدم لها ليس لعيب في أولئك الشباب لكن لغرض في نفسها، فمثلا هي ترى أن الزواج هو ختام الاستقرار لا بدايته كما يعتقد الجميع، كانت تؤجل الموضوع

حتى تثبت ذاتها لغيرها، لذلك ركزت كل طاقتها لأجل التفوق في جامعتها والحصول على المراتب الأولى في تصنيف الطلاب، لا تعرف طعم النوم الهنيء، ولا راحة البال، كل ما يشغلها هو وثائقها، درس من هنا وبحث من هناك، المهم أن تكون جديرة بكل ما تحصل عليه، وفعلا بلغت مرادها ونجحت في نيل شهادة الدكتوراه تخصص كيمياء بامتياز، كان حفل تخرجها عظيما برسالة الدكتوراه التي طرحتها عن الطاقات المتجددة وإلى أين نحن سائرون، حضره الدكاترة الكبار للمناقشة والطلاب الجدد للاستفادة، ما جعل كل أفراد عائلتها فخورين بها وبإنجازها هذا غير آسفين ولا على أي شيء في تربيتها حتى وإن كانت غريبة عن البقية، وحتى لو نظر لها المجتمع على أنها عانس وأنها متحررة زيادة عن اللزوم، يريان ثمرة حبهما وتعبهما من ذهب، ألماسة يتمنى الكل لو كانت تزين بيته، لكن هناك على المنصة لم يسعد الموضوع أميرة بالقدر الذي اعتقداه، فهذا لم يكن كل ما تصبوا إليه، شعرت أن الطريق قد بدأ الآن ولم يختم. مع أول خطوة وهي تغادر المنصة، كان التحدي واضحا في عيونها، مشيتها، طريقة رفعها لرأسها، كانت تبدو كفارسة مقدامة تلج حربها المصيرية.

أخذت فترة من حياتها أشبه بفترة نقاهة، لا تفعل شيئا غير الراحة والاستمتاع مع عمر وسليمة، والخروج في بعض الأحيان برفقة خالد، الذي كان في فترة المراهقة محاولة أن يكون هو صديقها الوحيد رغم صعوبة التعامل معه، كان يرغب في التحرر منهم ومن كل قيودهم، ظنا منه أنه قد كبر وأنه أصبح على قدر من المسؤولية والنضوج والكبر، لكنه الصديق المتاح أمامها والذي تستطيع أن تثق فيه، وحتى لو خذلها فلن تغضب فهو في نظرها ابنها الصغير والأمهات دائما يغفرن كل أخطاء صغارهن، فلم يستطع أحد اختراق تلك الحدود التي رسمتها بأشعة فوق الحمراء حولها، كل من اقترب احترق ببرودها وعدم تجاوبها.

بعد أن شحنت طاقاتها من جديد، أعلنت حربا جديدة، حربا من نوع آخر، حربها في إثبات الذات لكن هذه المرة على المستوى العملي، أودعت الملف الخاص بشهاداتها في كل مكان فكرت أنه قد يحقق جزءا من طموحاتها، مراكز تكرير البترول أو حقول استخراجه، مراكز تحاليل المياه، مراكز طبية رغم بعد هذه الأخيرة قليلا عن تخصصها لكن لم تقطع الأمل، و رغم عدم الرد أو الرفض في كل مرة بحجة نقص الخبرة، بينما كانت

تدرك هي أنه في الخفاء كان يأخذ الوظيفة أصحاب الواسطة، وهذا بالتحديد ما كان يحزنها بالأكثر حتى كادت تسلم نفسها للإحباط، فأن تبذل كل ما لديك لتحصل على شهادة عالية تظن أنها ستفتح لك أبواب المستقبل وتفرش السجاد الأحمر لأجلك، لم تنفعك في شيء، فما الذي قد يرفعك إلى طموحك؟.

غير أن الله لا يضيع تعب مجتهد، قد يبتليه ولكن لا يوجد من هو أحن منه على عباده، وتسللت رحمته إلى حياة أميرة عن طريق استدعاءها من طرف إدارة الجامعة، فلم تضيع وقتا وسلكت طريقها إلى هناك، وجدت طابورا من الطلاب الذين تعرفهم وجوها فقط، جلست على مقعد منفرد عن الجميع وقد أخرجت من حقيبتها كتابا تحجب به نظراتها عن البقية تنتظر إذن الدخول إلى المدير، بعد فترة قصيرة رن هاتف السكرتيرة، فانتبه الجميع إليها، كل ما قالته "أمرك سيدي"، ثم قامت بقدها الجميل وثيابها الرسمية وابتسامتها التي تكاد تكون مصطنعة لضرورة العمل وأشارت بيدها اليمين لهم أن يتفضلوا كلهم إلى مكتب المدير، فقام الجميع دفعة واحدة إلاّ أميرة فقد انتظرت دخولهم فهي لا تحب الزحام، وبعد مقدمات كثيرة وتحيات منمقة من المدير وكل جمل الفخر بهم أخبرهم

بسبب الدعوة، السبب الذي أنقذ أميرة من الوقوع في بحر الاكتئاب، فقد تم ترشيحها لتكون ضمن بعثة علمية خارج الوطن، بعثة إلى كندا رفقة كل أولئك الطلاب الذين تفحصتهم وجها، وجها بعد سماع العرض.

كان الموضوع جديدا بالنسبة لها لم تفكر قبلا في الابتعاد عن والديها رغم كل تحررها ورغبتها الجامحة في النجاح، طلبت مهلة لتدرس نتائج كل خطوة قد تخطوها في الوقت القادم، خرجت من مكتب المدير مباشرة إلى مكتبة الجامعة، انتقت طاولة في ركن منزو يكاد لا يراها فيه أحد باحثة عن الهدوء والسكينة، أخرجت ورقة وقلم وبادرت في رسم المخططات والاقتراحات، ماذا لو قبلت؟، هل ستستطيع التأقلم وحدها؟ بلد جديد وأناس قد لا تتوافق معهم فهي انطوائية جدا، لكن من يجبرها أن تختلط بهم؟، إذا ما المانع أن تقبل؟ فهي أصلا مكتفية بنفسها عن الجميع، هل يمكن أن تحصل على فرصة مماثلة لإثبات ذاتها وهي في وطنها دون أن تغادره؟ وأشياء أخرى كثيرة استولت على تفكيرها، لكنها كعادتها لم تفكر في استشارة أحد، أخذت من وقتها الكثير وهي تدقق في كل تفصيل حتى تستطيع الخروج بقرار صائب مناسب لها، وبعد

فترة لم تدرك مقدارها كانت أخيرا أميرة قد حسمت أمرها ولم يبق لها سوى إبلاغ عمر وسليمة وخالد الصغير والإدارة أخيرا بقرارها.

طول طريقها إلى البيت وهي تجهز الكلمات وتنمق العبارات علَها توصل ما تريد قوله لأهلها وتستطيع شرحه من وجهة نظرها هي، متمنية أن لا يقاطعها أحد وهي تتكلم حتى لا تفقد تركيزها، صعدت أدراج العمارة بتثاقل ملاحظ، حتى أن الناظر إليها يخالها مريضة، تجر حقيبة اليد خاصتها بدل وضعها على كتفها، وعلامات الحيرة بادية على وجهها، بوصولها إلى الشقة، سحبت المفاتيح من تلك الحقيبة، فتحت الباب، ألقت التحية على أمها بسرعة ودخلت مباشرة إلى غرفتها، لم تكن بعد جاهزة، تحتاج وقتا أكثر حتى ترتب كل شيء في رأسها فيكون قرارها واضح المعالم أثناء شرحه، وحتى تنتظر قدوم عمر كي تتكلم مرة واحدة وترمي كل ما في جعبتها، كما تعودت أن تفعل دائما، التريُث دائما في إعلان ما تفكر فيه لأهلها.

حتى أمّها تعودت معها على ذلك، عرفت سليمة أن أمرا ما يشغل بال طفلتها، تبعتها بهدوء إلى الغرفة وهي تحاول فتح الحديث مع تلك الكتومة آملة أن يكون خيرا.

*تبدين متعبة يا أميرة، هل أنت مريضة؟*

*كلا، أنا بخير.*

*هل ذهبت لموعدك في الجامعة، ماذا كانوا يريدون منك؟*

*نعم ذهبت، (ثم بدأت تغرس نظراتها في كل ما يحيط بها مبعدة إياها عن والدتها) لقد طلبوا مقابلتي من أجل إعلامي عن بعثة المتفوقين التي ينظمونها كل سنة.*

*لن تحتاجي إليها، فأنت أصلا تنتظرين رد الشركات على طلبك للعمل، وفتاة بمؤهلاتك لن يتم رفضها أكيد، أخبرت الإدارة بهذا أليس كذلك؟*

*لا بل طلبت مهلة لدراسة وضعي.*

*دراسة ماذا، أنت لن توافقي على تركنا وحدنا وحتى أخوك خالد من يهتم بدراسته تعرفين أنه لا يحب سواك، إذا لم التفكير*

*وإضاعة الوقت، اتصلي بهم الآن وأخبريهم أنك لن تذهبي إلى أي مكان.*

*لكنني سأقبل يا أمي، فهذه فرصة العمر، فترة وتمر ولن تحسوا بالفرق أبدا.*

جوابها كان صدمة لم تستوعبها سليمة، نزلت عليها كالصاعقة، كيف لنور عيونها أن يغيب هكذا، كانت كلمات أميرة كسكاكين غرزت بصدرها، لكنها تمالكت أعصابها أو أنها أظهرت أنها تماسكت رغم انهيارها من الداخل، ثم ابتسمت كي لا تلاحظ ابنتها ذلك التوتر، تصبِر نفسها أن هذا القرار ليس نهائيا وسيساعدها عمر في إقناعها بالتراجع عنه، وفجأة تبادرت إلى ذهنها فكرة مغايرة، ماذا لو أن ابنتها تختبر حبها وإن كانت تستطيع أن تحتمل ذلك لأجل مستقبلها.

*كفي عن المزاح يا شقية، فلا أنت ولا نحن نستطيع تحمل ما تفوهت به شفاهك الآن، تحاولين إغضابي فقط أليس كذلك (ثم ضحكت ضحكة تخترقها الرجفة، ضحكة متكلفة تغطي كل التوتر الذي كان واضحا من نظرة عيونها والفرك المتواصل ليديها) لن أبلغك مرادك ولن انزعج.*

مشت أميرة خطوات صغيرة إلى الشرفة، وأرسلت نظراتها إلى الأفق وكأنها ترى المستقبل كله مرسوما على تلك الغيمات الصغيرة، وبعد صمتها الذي أشعل نار القلق بين ضلوع تلك المرأة التي تبدو كالثكلى خلفها، صمت جمعت فيه أفكارها وقوتها، بعيدا عن ضعف الحنين والحب قالت:

*أنا لا أمزح يا أمي، لا أنكر أننا شديدو التعلق ببعضنا البعض، وصعب جدا ألا أستفيق على صوتك العذب ووجه أبي الصبوح، أن يمض يومي دون أن أسرد لكما كل نفس مني أين صرفته، ألا أقضي ساعات مع ذلك الولد الشقي أحاول فهمه والتأثير على تصرفاته الطائشة، لكن هناك فرص تأتي على شكل المنح التي ترفعنا عاليا، تختزل عمل سنوات في فترة زهيدة.*

عادت أميرة والتفتت إلى أمها، أفزعتها الدهشة التي غزت وجهها، تقدمت إليها وأمسكت يداها في شيء من الحنان وهي تكمل كلامها محاولة تخفيف وقعه.

*أرجوك لا تنزعجي مما سأقوله الآن فالموضوع متعلق بمستقبلي وحدي، ألم تعلماني أن مستقبلي هو صنع يدي وأنكما*

*ستحترمان كل قراراتي ما دمت أراها صائبة، إن هذه المنحة ستسمح لي أن أُقَدَم للشركات الأجنبية كدكتورة في الكيمياء متخرجة بامتياز، وليس كأميرة الباحثة عن عمل، سأختصر كثيرا من الجهد لبلوغ حلمي، وبعدها أعود لحضنكم.*

*دعكِ منا ومن مشاعرنا إن كانت لا تهمك، لكن ماذا سيقول الناس عنك وعن أبيك، كيف يسمح لابنته أن تخرج من إطار التقاليد وتسافر بمفردها خارج الوطن، أنت حتى لست متزوجة لنسكتهم بذلك.*

*الناس...الناس...ماذا قدّم لي هؤلاء الّناس؟ هل تعبوا وسهروا بدلا عني؟ هل هم من رسموا حلما عاليا وعند آخر الخطوات لبلوغه سيتحطمون لأجلي؟ كل ما جعلني أتردد قليلا هو أنت وأبي وخالد أما البقية فلا يهمني أمرهم.*

زادت سليمة من شدة ضغطها على يدي ابنتها تحاول استعطافها بذلك بعد أن أيقنت أنها تتكلم بجدية والأمر ليس مزاحا أبدا، وقد كانت أوّل دموعها قد فارقت عيونها منحدرة على خدها الأحمر الذي بدأ يشحب من وقع الخبر على نفسها.

*ما دمنا نهمك فلتبقي لأجلنا.*

*حاولي أنت تفهمي كبر حلمي، بعد فراغي من الفترة المحدّدة سأعود بخبرة أكبر، ستتهافت الشركات لأجلي ولست أنا من ستركض إليها، علينا جميعا أن نضحي بوحدتنا قليلا...*

تلك الفرحة التي ملأت عيون أميرة خففت من صرخة الأم في قلبها، لكنّها لم تمنع الهم أن يحط رحاله على تقاسيم وجهها، أفلتت يد أميرة وانسحبت عائدة إلى الخلف، خرجت من الغرفة وهي تجر أذيال الحنين من الآن، حملت كرسيا من غرفة المعيشة، وضعته أمام الباب وجلست تنتظر عودة عمر، علّه يجد طريقة ليقنع أميرة دون جرحها أو تحطيم طموحها، والحزن قد عقد جبينها وأسال الدمع الغزير.

أمّا أميرة فتهلّل وجهها وارتاحت نفسيتها ولو قليلا، كانت خائفة جدّا من هذه الخطوة، خصوصا مواجهة أمّها، خافت أن تصر على الرفض وأن تستعطفها أكثر فتضعف وتتنازل عن موقفها، لكن مرّت الحادثة بسلام واستسلمت لرغبتها كما لم تتوقّع، شرعت في تحضير قوائم بما ستحتاجه من أوراق ومشتريات وثياب وكل شيء مجندة كل تركيزها حتّى لا يفوتها أي تفصيل، لكن الشك لم يغادرها كليا فمازال موضوع إقناع والدها...

ما إن دقّت الساعة السابعة والربع مساءا، فُتِح الباب بكل هدوء، دخل عمر منه مبتسما كعادته سعيدا بعودته لعائلته وركن فرحه من هذا الكون الشاسع، تاركا وجهه المتعب عند العتبة، غير أن تلك الابتسامة لم تلبث أن تلاشت بعد أن رأى سليمة بذلك الوجه الكئيب تنتظره، أسرع الخطى إليها وجثا على ركبتيه بالقرب من كرسيها ثم أمسك يدها و هو يسألها عن الذي حدث في غيابه، وهل هي بخير، هل أصاب أميرة أي مكروه، بدأت الدموع تتسرب من عيناها فارة منها مرّة أخرى بعد أن كانت قد توقّفت قبل ذلك بصعوبة بالغة، لم يستطع عمر إخفاء قلقه، الذي كان يتّضح في ضغطه الشديد على يديها دون انتباهه وارتفاع صوته و هو يطرح استفساراته، ثم نادى أميرة حتى تشرح له ما بال حبيبته، وتحكي ما حمله هذا اليوم من سوء لنور عينيه.

خرجت أميرة من غرفتها مسرعة على صوت والدها الذي كان الجزع يبطنه، لكن ما إن اقتربت منهما، فهمت ما يريده عمر حتى أنها ظنت أن أمّها قد حكت له قبلها، وعرفت أنّها السبب في حالتها فلا شيء غير ذلك قد حدث، تقدمت بخطوات

مرتجفة لكن تتكلف الثبات، وجرّبت أن تفتح الموضوع بنفسها حتى تتمكن من شرحه بطريقتها لوالدها.

*لا داع للقلق يا أبي فأمي بخير، هي فقد منزعجة مني أو... على وضعي.*

ترك عمر زوجته، وقام من أمامها متوجها إلى أميرة كي يفهم منها ما فعلته، ثبَت عينيه الكبيرتين عليها لكن جرب أن يتكلم بهدوء حتى لا يتسبب في إخافتها فهو يعرف نضجها ولم يخطر بباله ما الخطأ الذي قد يصدر عن مدللته.

*ما الذي فعلته يا ابنتي حتى تنهار أمك هكذا؟*

*تريد تركنا يا عمر، ابنتك ستسافر إلى كندا.*

انبعث صوت سليمة من مكانها بهذه الكلمات، لتحسم القلق والتوتر الذي كان قد استولى على زوجها، قالت ذلك بعد أن رأت الجمود قد سرى في جسد ابنتها، وأنّها لم تنطق بكلمة، الوضع مختلف الآن هي تكلّم والدها الذي مهما كان قريبا منها صديقا لها، لكن تبقى له هيبته ورهبته، احترامه ومكانته التي لا يمكن تخطيها.

*ما الذي تقوله أمك يا أميرة، عن أي كندا تتحدث، وأي سفر؟*

*أمي تقول الحقيقة، فقد طلبت إدارة الجامعة منّي أن أكون ضمن البعثة التي سترسل بها لكندا من أجل تطوير الخبرات، وأنا قد قبلت.*

*قبلت؟ وهل علينا نحن أن نقبل أيضا دون نقاش؟ نحن لا نساوي شيئا في حياتك لهذه الدرجة حتى لا تكلفي نفسك باستشارتنا؟*

*الموضوع ليس كذلك يا أبي لكنّه مستقبلي، حياتي، وكما سأضحي لفترة بوجودكم فيها رغم أنكم جوهرها، ستصبرون على فراقي قليلا، حتّى أعود وقد بلغت هدفي، ستكونون فخورين بي.*

أصرّ عمر أن ما تقوله لن يحدث أبدا، وطرح نفس الفكرة التي سبقته سليمة إليها، أن ماذا سيقول الناس عنه وعن كلمته التي ستجعلها ابنته فلذة كبده في الأرض، هذه المرة سكتت أميرة وهي تصغي لكل ما يقوله وتؤكده أمها بدورها، ووجنتاها تزدادان حمرة، أصبحتا كجمرة متقدة، لتختم كل

ذلك بأن رفعت رأسها أخيرا، دون أن تفتح عيناها، وتبلغهما أنّها قد أنبأت الجامعة بقبولها وأنّها لن تتراجع عن ذلك وتطلب منهما أن يقفا إلى جانبها ويدعما قرارها كما كانا يفعلان دائما.

سرت الصدمة في جسديهما مسرى الدم، لم يجيباها ولا بأي حرف، بقيا ينظران إليها يتأملّان طفلتهما قد كبرت وأصبحت قراراتها لا تجد أذنا لديها لتصغي، وتلك الحرية التي منحاها لها قد أثمرت غير أن ثمرها لم ينل من إعجابهما شيئا، فهل يلومانها أم يلومان أيديهما على ما غرست؟

غادرت أميرة المكان وهي تبدو في كامل الثقة والاقتناع بما صدر عنها، لكن مجرّد أن وطئت قدماها الغرفة حتى انفجرت بالبكاء، كانت تحس بالذنب أنّها خالفت رغبة والديها، ذنب تلك الخيبة التي رأتها في عينيهما، ذنب أنّها قدَمت مستقبلها على سعادتهما ووحدتهم جميعا، ذنب أنّها ستكون الصحيفة التي سيستعملها الجميع ليكتب ما شاء عن سمعة والدها، بكت كذلك حزنا تملّك قلبها على فراق هذين الشخصين اللذان كانا كالملكين الحارسين لها، فراق لم تخطو بعد فيه لكن مجرد التفكير كان مؤلما، وخطر ببالها ذاك الفتى الذي لم يعرف بعد عن كندا هذه شيئا، سرحت بمخيّلتها تتوقع ما سيقوله لها، هل سيلومها

هو الآخر لأنها تخلت عنه؟ ولم يطل بها السرحان حتى قطع ذلك صوت باب غرفتها وخالد يتقدم بخطواته السريعة إليها، وما إن وصل عانقها بشدّة وهو يقول كلمات كثيرة متداخلة لم تعِ أميرة منها إلا أنه سيقف بجانبها ويدعم خطوتها هذه فحتى هو يحلم أن يخرج من هذا الوطن، ثم جلس بقربها وأكمل كلامه وهو يحاول أن يخفف عنها.

*بمجرد أن تصلي إلى هناك، حاولي سحبي خلفك، على كل تحتاجين رجلا يحميك ولن تجدي أفضل مني.*

هون عليها بمزاحه ذاك، وأزال قليلا من الحمل الذي قد أثقل كاهلها وأحسّت أن دعمه إشارة أنّها على الطريق الصحيح، ثم شرحت له قانون البعثة وأنّها مجرّد فترة لا غير وتعود إليهم، وعليه أن يحمل مهمة إسعاد والديها بعدها، والاعتناء بهما وهذا كل ما تطلبه منه، كما أن عليه أن يجتهد في دراسته كثيرا حتى يتمكن من الذهاب حيث يشاء ولا ينتظر أن يسحبه أحد حتى وإن كانت أخته.

مرّت تلك الفترة الباقية على مغادرة أميرة، ثقيلة مملة غلفت كل ثوانيها بالحزن، أميرة تحاول أن تستغل كل لحظة من أجل

إتمام الإجراءات وجمع احتياجاتها، كانت تعلم أن ترك ذلك لآخر لحظة سيعيقها، دخلت إلى مدرسة خاصة لتعلّم اللغة الإنجليزية، فرغم أن كندا يتحدّثون الفرنسية أيضا لكن لم تشأ أن تترك في نفسها نقطة ضعف فنحن بلد ترتكز منظومته التربوية على اللغة الفرنسية بحكم المخلفات الاستعمارية.

تسحب خالد معها إلى كل مكان تذهب إليه تحاول قدر الإمكان أن تزرع فيه ذكريات كثيرة حتى لا يشتاق لها كثيرا. عمر يهرب من البيت ببقائه طويلا في العمل أو في مقهى عمي هواري أول الشارع يلعب الدومينو ويشرب الكثير من القهوة حتى يخفف عن نفسه ولو قليلا، لم يحتمل رؤيتها وهي تتجهز بكل تلك الهمة لتركه، لم يستوعب فكرة أن التي منحها حب العالم كله فضلت مستقبلها على ذلك الحب، أمّا سليمة فلم تجد سبيلا لنفسها غير البكاء والحزن، تحاول في كل مرة استعطاف قلب وحيدتها لكن دون جدوى.

أنانية

رحلتِ؟

وكل حبي لك بعتِ

أ فعلا كل ما بنيته

أنتِ الآن هدمتِ

أيتها الأنانية

قفي دقيقة

لا بل ثانية

أحببتك لسنين ماضية

وأحبّك في اللحظة الآنية

وسأحبك لسنوات آتية

وإن كنت أنانية

سأقول ظروفها قاسية.

# - ٣ -

في آخر ليلة لها، حضّرت أميرة العشاء لوالديها وأخوها، عشاء "إلى اللقاء"، لقاء لا تعلم متى سيكون، وطلبت منهم أن يجلسوا لآخر مرّة دون حزن، دون غضب مكنون، وحاولت قدر الإمكان إيصال وجهة نظرها لهم لآخر مرّة، رغم كل التماسك الذي بدا واضحا عليها إلاّ أنها كانت تتحطم في كل ثانية عندما ترى عيونهم الذابلة.

عمر وسليمة من صنعاها هكذا، بعد إرادة الله لذلك، علّماها أن الإنسان عليه دائما أن يتحمل نتائج قراراته حتى آخر رمق له، علماها أن المستقبل تصنعه الخطوات الواثقة الحاسمة وليس تلك التي يشوبها الارتباك والتردّد، وأن الركض خلف الطموح هو ما يجعلها تصل إليه وليس كتابته في دفتر الأمنيات،

لذلك كان غريبا بالنسبة لها انزعاجهما منها لا يبرّره إلى أنّهما أبوان.

مع أوّل أشعة أرسلتها الشمس كانت أميرة قد حزمت كل حقائبها، تقف أمام العمارة تنتظر سيارة الأجرة، بجانبها عجوزان شاخا فجأة يتكلفان الابتسام حتى لا ينشغل بالها فسفرتها طويلة، وخالد لم يكف عن عناقها وتقبيلها، يخبرها في كل مرّة أن ذلك عن كل الأيام القادمة التي لن يتمكّن من ضمها بين يديه الصغيرتين. بعد وقت قصير وصلت السيارة، ارتمت أميرة على أمها تلثمها وتحضنها بقوة، سكبت كل حبها في ذلك الحضن وسحبت منه الطاقة التي تحتاجها، فالحب أقوى وقود قد نشحذ به أرواحنا للصمود طويلا، ثم قامت بنفس الحركة مع عمر، و ودّعتهما من أمام بيتهم الذي ودَعته كذلك بنظراتها التي طافت بكل حجر بناه، و ذكرياتها تمر شريطا متتابعا، رفضت أن يرافقوها إلى المطار، كانت تريد أن تبدأ رحلتها من باب شقتهم بمفردها، مسحت دموعها، وقفت كشجرة ثابتة الجذور، أصيلة المنبت، رفعت يدها اليمنى و ودّعتهم لآخر مرة آملة أن تراهم قريبا، ثم استدارت بسرعة وركبت السيارة وهي تحاول جاهدة حبس دموعها وعبراتها،

سكبت سليمة خلفها إبريقا من الماء، كتقليد قديم يأمل فيه الناس أن يعود غائبهم قبل أن يجف ذلك الماء.

انتابتها فكرة العودة والعدول عن قرارها، ما دامت قريبة منهم، لكن كان لها كبرياء قاتل منعها من ذلك، حفّزها حتى تصل إلى المطار، كلّمها طويلا حتى ركبت الطائرة، ثم جلس أمامها وهو يخبرها أنّها في الطريق الصحيح. استرخت لهذه الفكرة الأخيرة ونامت ساعات الطريق الطويلة، غير آبهة بكل من يشاركها الرحلة، بعد مضي الوقت المحدّد لهذه الأخيرة، أعلنت المضيفة أن الطائرة توشك على الهبوط وعلى الجميع ربط أحزمتهم، كان بقرب أميرة شاب معها من البعثة نفسها، مد يده كي يوقظها، لكنّها استفاقت قبل أن تصل، نظرت إليه نظرة شزراء جعلته يسحب يده بسرعة.

*آسف سيدتي أردت فقط أن أخبرك أن تضعي حزام الأمان فقد وصلنا.*

*شكرا.*

قالت ذلك وهي تتفحصه بعيونها بدأت بحذائه الكلاسيكي وبذلته السوداء مارة بطوله الواضح وجسمه

المكتنز قليلا وصولا إلى وجهه ذو البشرة الحنطية الذي كان أقرب إلى وجوه الأطفال منه إلى الرجال، صاحب عينين لوزيتين براقتين تشعان براءة، ذلك الفحص الذي يشبه الماسح الضوئي جعل الشاب يرتبك، وبمجرّد ما أُعلِن أنه يمكنهم النزول، سابق خطاه فارا منها ومن نظراتها الثاقبة، لتقوم بعده بهدوء ولباقة وتحمل أغراضها لتلحق بالآخرين، توجّهوا بعدها في حافلة خاصة إلى سكن جماعي لكل أعضاء البعثة بمن فيهم ذلك الشاب الذي واصل مراقبتها من بعيد، معجبا بجمالها أولا وبقوّة شخصيتها ثانيا، فالنّساء اللّواتي استطعن أن يكنّ معهم قليلات جدا، تلك اللواتي لم ترقن لأميرة، التي بمجرد وصولهم إلى السكن قامت وبكل عجرفة تدس الكثير من الخوف داخلها، فرضت على الجميع أن تكون لها غرفة خاصة لا تشاركها فيها ولا واحدة منهن، وبما أنها كانت المنبعثة الخاصة فقد قبلت مديرة السكن بذلك دون نقاش مبرّرة أن السكن يحوي الكثير من الغرف وذلك لن يؤثّر على راحتهم، لكنه بالمقابل جعل الجميع لا يفكر حتّى في التعرف على هذه المتغطرسة، حملت حقائبها واختارت الغرفة المطلّة على الشارع، تماما كما كانت غرفتها القديمة، بعد أن ألقت تحية جماعية لم

يردها إلاّ ذلك الشاب الذي أربكته نظراتها لكنّها أثارت فضوله، فحين كان الجميع منشغلا في إيجاد رفيق يخفف عليه غربته، كانت هي تعمل جاهدة حتى تزيد من وحدتها. نظرت إليه هذه المرّة أيضا لكن بلطف وابتسامة بسيطة تكاد تكون جافة، ثم اختفت من المكان كله.

كان الأسبوع الأوّل عبارة عن استراحة لهم حتى يقوموا بترتيب أغراضهم وكي يرتاحوا من تعب السفر، وفي الوقت الذي قام أعضاء البعثة باستغلال ذلك منشغلين بزيارة كل الأماكن المعروفة التي استطاعوا الوصول إليها في كندا، كانت أميرة منشغلة في بحوثها ووحدتها لا تغادر غرفتها إلاّ نادرا، تنتظر الوقت المناسب لأهلها بسبب فرق التوقيت لتتصل بهم، مفرطة في إظهار أنها بخير لا ينقصها شيء أبدا، وفسحتها الوحيدة كانت الجلوس على قارعة نافذتها تستمتع بالمنظر الجميل أو أن تحمل حاسوبها وتجد لنفسها مكان بعيدا عن الضجة في بهو السّكن، تكوّنت لدى الجميع نظرة عن هذه الأميرة الغريبة أنّها متكبّرة، متعجرفة، متعالية لا تصلح لتكون صديقة لأحد ومنذ أوّل أسبوع فازت بلقب عدوة الجميع، إلا

شخص واحد ظل مصرّا أنها مميزة ولا بد أن يستطيع كسر القاعدة وأن يكون صديقا لها.

في إحدى جلساتها الانفرادية، لفت انتباهها كوب من القهوة قد وُضِع أمام حاسوبها، كانت قهوته ساخنة يتصاعد البخار منها، رفعت رأسها لتجد ذلك الشاب صاحب الوجه الطفولي ينظر إليها ببلاهة، يمسك كوبا آخر ينتظر أن ترفع كوبها، وذلك ما حدث فعلا، رفعته وأرجعته إليه متحجّجة أنّها لا تحب القهوة، أمسكه المسكين بعد أن خاب أمله في فتح حديث مع هذه الغريبة الأطوار، ولم تكتف بذلك بل أضافت بنبرة قاسية أنّها لا تود أن تكون صديقة لأحد تحب وحدتها وترتاح بها. لم يفعل الشاب شيئا سوى أن ألقى كلماته التي خنقته في وجهها بلطف وصوت خافت يشعِر من أمامه بالذنب.

*كان مجرّد كوب قهوة حتى أنّني لم أكن أود حديثا مطولا، أردت أن أطمئن عليك كزميل فقط، لكن أنا آسف.*

شعرت بفظاظة تصرفها فطلبت الكوب مجدّدا وعرضت عليه أن يشاركها جلستها إن شاء، وطبعا لم يرفض عرضها بل

رجعت إلى وجهه تلك الابتسامة البلهاء، البريئة التي صيرته يشبه الأطفال مجدّدا.

بعد فرك طويل ليديه وحبات عرق على جبهته رغم برودة الجوّ، قرّر أن يتكلم أخيرا فبعد أن انشغلت هي بعملها وتجاهلت وجوده كان لا بدّ له أن يجعلها تلاحظه.

*اسمي خالد، أنا من كان يجلس بجانبك في الطائرة هل تذكرتني؟*

*آسفة لا أذكر، على كل أنا أميرة، صدفة جميلة أن يكون اسمك على اسم أخي الصغير، (عبست ملامحها وذبلت عيناها لحظتها) اشتقت له جدا.*

*اسمك يناسب شخصيتك جدا هل تعلمين ذلك، رغم بساطتك في أسلوب اللبس والاحتياجات، إلا أنّك تملكين من كبرياء وأنفة الأميرات الكثير، كما أنّه يسرني أن أكون أخا لك بدل خالد الصغير.*

جذب بذلك تركيزها من بحثها إلى كلامه، رفعت رأسها من على شاشة الحاسوب إلى وجهه، ليس لأنّها صدّقته أو

تأثرت به لكن لأنّها كانت تشعر بالوحدة رغم تظاهرها بالعكس، رغم ذلك فإن كل ما فعلته ردّا على كلامه ابتسامة ولدت على شفتيها فقط وكلمة شكر سريعة، وهذا في حدّ ذاته كان إنجازا لخالد، على الأقل لم تنسحب من المكان كما تفعل دائما، ثم تشجع ليتكلّم في أشياء أخرى، عدّل جلسته حتى تصبح بين ناظريه، فتح مواضيع بسيطة كأن حكى عن أسرته وتخصصه الجامعي لكن باختصار شديد، حاول جاهدا أن يجعلها لا تنزعج من حواره، كان تفكيره مستقبليا، يريد جلسات أخرى غير هذه.

وأصبح كوب القهوة أكوابا كثيرة لكل يوم، مع مواضيع أكثر وارتياح أكبر لكليهما، أصبحت تجمعهما التفاصيل ليس فقط العموميات، بدأت تعرف كيف يمكن أن تتعايش مع صديق يساندها ويمسح الوحدة من قاموسها، كان يشغل مكان خالد أخيها في قلبها، قد يكون تشابه الأسماء قد لعب دورا حتى تتقبله وتلك البراءة التي تشع من عينيه مهدت له طريق العبور لحياتها، تعامله كابن لها رغم ضآلة فرق السن بينهما، احتفظت في ذاكرتها بالكلمة التي قالها أنّها يمكن أن تعتبره أخا جديدا، و هو لم يرفض الوضع، أصلا من يرفض

الاهتمام كيفما كان و هو في الغربة، يتشاركان العمل وساعات الرّاحة، يتنقّلان معا في نفس الحافلة إن كان إلى الشّركة أو في نزهات التبضع وتمضية الوقت والتسكّع التي كانت قليلة جدا لكن يمضيانها بسعادة، شاركته عند الحنين دموعها التي لم تسمح لأحد قبلا أن يراها، وشاركها حبه الكبير وقلبه الحنون، وأصبح هو كل من تملك في ذلك البلد الغريب، أصبح يملك مكانة خاصة لديها تسمح له أن يخوض معها في أيّ موضوع، وأن يقترح كل ما يخطر بباله دون أن ترمقه بنظراتها الثّاقبة الرافضة، واحترم هو بدوره تلك المكانة التي وصل إليها والتزم بكل ما يريحها ولم يسمح لنفسه بتجاوز حدودها.

وفي إحدى جلسات القهوة التي صارت مقدسة لديهما، استطاع التسلل في الحديث ووصل إلى موضوع الزواج، الموضوع الذي لا يستطيع أي صديقين في سنهما ونضجهما تجاوزه، أحسّ أنّه يريد أن يعرف لِمَ لَمْ يدخل أحد حياتها إلى اليوم، أو أنّها ترفض الارتباط لتجربة سيّئة سابقة، كان الفضول هو من يحركه وقتها، الفضول في أن يصل إلى السبب وراء انطوائيتها خاصة في علاقتها مع الجنس الآخر.

*أميرة، يعني أنا وأنت من نفس البلد، أعرف التقاليد والكلام الكثير فيه عن الفتيات وخصوصا تلك المتعلقة بالزواج، حتى أن كل المبتعثات معنا متزوجات.*

*تقاليد تافهة تربط الفتاة وتقيدها لا غير.*

*إذا أنت من رفضت الزواج؟ لا أظن أن ذلك لعيب فيك، هلّا شرحت لي لِمَ لَمْ تتزوجي حتى الآن؟*

*فقط هي قناعات راسخة في عقلي لا تشبه تلك التي تربينا عليها، قد تكون خاطئة لكنها بالنسبة لي مريحة، أن أتزوّج يعني أن أقدم كل اهتمامي و وقتي لتلك العائلة، أكلهم، لبسهم، ما يحبونه، ما يكرهونه، وكل تفصيل بسيط لا بد أن يكون لي لمسة فيه، وأنت ترى الآن وقتي كله أصرفه على عملي وأبحاثي ومازلت أحتاج القليل لأصل إلى حيث ينتظرني اسمي، الاستقرار ينتهي بالزواج ولا يبدأ به.*

*أولا يا دقيقة هذا ليس مشروع عمل حتى تحشري أنفك في كل نقطة منه، فلكل شخص من هذه العائلة جانب من الخصوصية ما عليك إلا تقديم الحب والاهتمام، ثانيا لو بقيت بهذا التفكير الأكيد ستكونين بعمر جدتي قبل أن تتزوجي.*

*إن كان يهمك الزواج لهذا الحد يمكنني أن أحضِّر لعرسك، وحتى أن أربي لك ولدا مستقبلا.*

*قطعت وعدا على نفسي ألا أتزوج حتى أقنعك يا عنيدة.*

*ستنتظر كثيرا يا ولدي....*

انسحبت من الجلسة كعادتها حينما تجد نفسها قد حُصِرت في موضوع لن تتمكّن من الخروج منه منتصرة، فهي تعلم أن خالد محق في كل كلمة قالها، وحتّى هي نفسها كانت تودّ أن تحظى بعائلة صغيرة تشبه عائلتها، قد تملّكها الخوف ألا تصل إليها، فالاستقرار الذي تنتظره حتى تستطيع الزّواج قد يكون بعيدا وممكن جدّا أن لا تصل إليه، لكن عليها أن تتحمّل كعادتها مسؤولية كل حرف يصدر منها، غيرت ذاك المفهوم السائد "كلمة راجل" إلى آخر جديد "كلمة أميرة"، وسبب خفي آخر جعلها تهرب من الحوار، فآخر جملة قالها خالد تستطيع أن تأخذها إلى نقطة هي لا تودّ أن تفكر فيها، ستفتح بابا من الاحتمالات الكثيرة التي لن تروق لها.

مرّت الأشهر الأولى، ودخلت أميرة بعد فترة الانتقال واكتشاف البلد الجديد وتلك الصداقة النسبية مع خالد في

دوامة العمل والانشغال، دوّامة أنستها كل ما سبق ذكره، قلّت الفترات التي تقضيها مع خالد خاصة والتي تقضيها بلا عمل عامّة، حتّى أنّها قد أظهرت تميزا ملاحظا في فترة قصيرة، قد طوّرت من موضوع رسالة الدكتوراه خاصتها بعد توفير الشركة لكل الإمكانيات أمامها وتسهيل ظروف عملها، لم تخيب ظن أحد فكانت النتائج مبهرة مشرّفة، ما جعل الشركة تطرح عليها فكرة العمل الدائم وليس فقط لمجرّد فترة البعثة، حتى أنّهم اقترحوا ترقيتها إلى منصب يناسب شهادتها وقدراتها ونشاطها.

وكما حدث يوم قرار البعثة، جلست وحيدة وقامت بدراسة الموضوع ونتائجه وقرّرت أخيرا أن تقبل، هذه هي الفرصة الذهبية التي ضحّت بأهلها من أجلها، ها هي تكسب أوّل معركة في حربها الضروس، لم تشارك أحدا بالخبر ولم تسمح لنفسها أن تستشير غير عقلها الذي كان بالنسبة لها رزينا يفي بالغرض حتى تستطيع التخطيط لحياتها، كل ما بقي عليها هو الاتصال بسليمة وعمر لتخبرهما قرارها النّهائي، بيْد أنّها تفاجأت هذه المرة أن رفضهما كان قاطعا دون نقاش، بالمقابل كان إصرارها كبيرا دون رجعة، فكان ختام ذلك سخط والدها

لدرجة أن طلب منها أن لا تتّصل بهما مجدّدا بما أن مستقبلها ونجاحها كان أهم منهما وإقفال الخط في وجهها دون أن يسمع منها حرفا إضافيا آخر.

رغم قساوة هذا القرار على نفسية أميرة إلا أنّها لم تتراجع خطوة واحدة لأجل تصحيح الوضع، بعد إقفال الخط مع عمر هذه المرّة أيضا بكت كثيرا، ندمت قليلا، لكنّها أصرّت على النجاح أكثر حتى تجعلهما ينسيان زلتها تلك ويفتخرا بها.

مع طلوع فجر اليوم التالي، استيقظت أميرة التي لم تنم إلا وقتا بسيطا بعد ما عاشته في الليلة الماضية، بمجرد أن شارفت الساعة على تمام التاسعة، اتّصلت بالإدارة تبلغهم موافقتها على عرضهم، وأخذت موعدا للاتفاق على باقي التفاصيل وتوقيع العقد، قامت بعدها ولبست طقما رسميا أسود، وقميصا أبيضا يعلوه شال أسود قد ربط بأناقة على عنقها، حملت حقيبة اليد الصغيرة وحقيبة حاسوبها وخرجت من غرفتها بعينين تشعان ثقة وإصرار، نزلت الأدراج بتأن، وصوت ضربات كعبها تضجّ بالمكان، ذاك ما نبّه خالد لقدومها، الذي كان يكمل فطوره الصباحي، مسح فمه بسرعة وخرج من المطبخ حتّى يلحق بها، فقد أصبح يتصيد الفرص حتى يستطيع التحدث

معها، وشيء ما كان يجول بخاطره يريد أن يفضي إليها به، فهي جزء منه، كان أخيرا قد حسم أمره أن يكلّمها في موضوع حبّه لها لأنّه لم يعد قادرا على كتمه أكثر، مقرّرا طلب يدها للزواج حال عودتهم إلى الوطن، العودة التي لم يبق على موعدها الكثير، ولم يجد لذلك وقتا آخر غير الطريق إلى العمل.

*صباح الخير أميرة، إلى العمل؟*

*صباح النور، نعم لكنني مستعجلة سأركب سيارة أجرة، لن أنتظر حافلة الشركة.*

*هل أستطيع أن آتي معك؟*

هزّت رأسها موافقة، كانت مشغولة البال، لم يكن مهما إن رافقها أحد أم ذهبت بمفردها، المهم أن تصل على الموعد المحدّد، وتوقّع عقد نجاحها على باقي أفراد البعثة، توجّهت إلى المشجب، رفعت معطفها الأسود، بمجرّد خروجها من المسكن، وجدت خالد قد سبقها وأوقف سيارة أجرة، أسرعت قليلا مع الحفاظ على لباقتها في كلّ خطوة، فتح خالد الباب بكل أدب، ركبت وهي تتفقّد ساعتها، ثم لحق هو بها من الجانب الثاني.

*تبدين أنيقة جدا اليوم، أ هذا يوم خاص أم ماذا؟*

*بلى، لم أملك وقتا قبلا كي أخبرك، عرضت عليّ الشركة توقيع عقد للعمل الدائم معهم، بما أن الفترة المتبقية لنا قد شارفت على الانتهاء، سأعمل كمديرة للأبحاث في الطاقات المتجدّدة هنا.*

بدت علامات الانزعاج والامتعاض على وجه خالد، ضغط بكلتا يديه على المقعد كي يخفّف قليلا من توتره ويستطيع إكمال الطريق معها دون أن تلاحظ ذلك.

*وهل قبلت العرض؟ سؤال تافه، أكيد فعلت فالفرحة تتسلل مع كلماتك.*

*نعم وموعدي الآن لتوقيع العقد.*

على عكسه تماما كانت علامات السعادة والانتصار هي من احتلت تفاصيلها، كأنّها أرادت أن تخبره أن حلمها يكاد يصبح حقيقة بهذا العمل.

*ظننت أنك ستعودين معنا إلى البلد، فكما تعلمين لم يبق على فترة البعثة إلّا أسبوع واحد.*

سكت قليلا وهو يقول كلاما كثيرا داخله، كيف قبلت أن تبتعد عنهم وهي بكامل سعادتها وسرورها هذا، بل أن تبتعد عنه هو تحديدا، إذا كل ما يحسه تجاهها كان من طرف واحد، لم تكلف نفسها حتى أن تخبره مسبقا أو أن تناقش الموضوع معه أحس بالخيبة قد بدأت تعرف طريقها لقلبه، وبذلك أقفل على الموضوع الذي كان يريد أن يكلمها فيه واكتفى بأن تمنى لها التوفيق، وأدار وجهه للنافذة يحاول أن يبدو هادئا وهو ينظر لكل ما في الشارع دون أن يبصره.

أمّا هي فقد لاحظت كل حركاته وسكناته وكانت تعلم بكلّ ما يجول بخاطره، لكن من تخلّت عن فرحتها بالعودة لأهلها كيف لها ألا تتخلّى عن شخص جمعتها به ظروف فقط، تحس بالجميع لكنها تتخذ قرارات قاسية بالنسبة لها قبل الآخرين، تظهر القوة لكنّها ضعيفة من الداخل، لو نظر أحد في عينيها لرأى دموعا غزيرة يمنعها حاجز الكبرياء من النزول، كان النجاح والطموح أهمّ من هذه المشاعر فهي في نظرها ستختفي بعد فترة، والتي مهما طالت لكنّها ستنتهي.

خيّم الصمت على الجميع إلاّ من صوت المذياع الذي لم يكن أحد مهتما بما يصدر عنه، وصوت أغنية سيلين ديون

العالي، ما إن وصلا إلى مقرّ الشركة، حتى نزل خالد من السيارة، تقدّم إلى السائق ودفع أجرته واختفى، لتنزل هي بعده بخطوات تحمل عزيمة أكبر فجميع من تهتمّ لأمرهم يعلم الآن، وقرارها لن يتغيّر، واصلت طريقها حتى مكتب شؤون العمّال لإتمام وثائقها، وهناك علمت أن الشركة ستوفّر لها كذلك شقة مفروشة في مجمّع سكني خاص بالشركة نفسها، إضافة إلى سيارة خاصّة مع سائق، كل ذلك زاد من ثقتها في أن قرارها كان صائبا، وبذلك خرجت من ذلك المكتب مع عقد للعمل وشقة وفوق ذلك سيارة، فعلا كان حلما، إنّه الاستقرار الذي كانت تبحث عنه طول الوقت، الّذي عندما أتى شغلها عن كل أمر غيره، حتّى عن أحبّتها.

عادت قبل انتهاء دوام يومها بفترة جيّدة بسيارتها الخاصة إلى المسكن المشترك لتحزم حقائبها وتغادره بلا رجعة، كان لها في كلّ ركن ذكرى تجمعها بخالد، ذلك الشاب الوحيد الذي تحمّل كل عجرفتها ومزاجيتها، أرادت أن تقدّم له اعتذارها إن كان تصرّفها قد أزعجه، فقرّرت أن تكتب له رسالة وداع، لم تملك جرأة انتظاره ومواجهته مجدّدا، رسالة حمّلتها كل عبارات الشكر التي يحملها قاموسها الرّسمي، والكثير من الذكريات

الجميلة التي جمعتهما سويا طوال هذه الفترة، وختاما لها كتبت وداعا خافت من كلمة إلى اللّقاء فقد لا تلتقيه بعد اليوم، لم تشأ أن تترك له ولا حتى بصيص أمل كي يستطيع البدء من جديد. وتركتها لدى بوّاب المسكن، دون أن تترك أي عنوان لها ورحلت كما أتت دون صديق أو قريب، رحلت وحيدة.

بقي خالد مكفهر الملامح، لا رغبة له لا في العمل ولا في محادثة أحد، وما إن أنهى دوامه هو الآخر، عاد إلى السّكن مصمّما أن يفتح الموضوع مع أميرة، آملا أنّ ذلك قد يؤثّر على قرارها كآخر حل لديه، فقد تكون هي أيضا تحبه وتنتظر منه المبادرة بفتح الموضوع كما هو سائد في عرف المجتمعات الذكورية، حتّى أنّه فكّر أن يخبرها أنّه يريد أن يعرض على الشركة خدماته أو حتّى أن يجد عملا آخر ويبقى معها هنا، لكن الرّسالة التي تلقاها عند أول خطوة وضعها في المسكن دمّرت كل تلك الأحلام والمخطّطات.

*"خالد"*

*لم أشأ أن أغادر دون أن أشكرك على كل ثانية قضيناها سوية، شكرا يليق بصداقتنا وطيب قلبك، رغم أنّي لم أملك الوقت الكافي لانتظارك حتّى يكون وداعا كما يليق بك فعلا، كنت مثالا للصديق والأخ الذي لا يعوّض، لن أنس أبدا فناجين القهوة وسهرات الفضفضة، نقاشاتنا الطويلة، تسكعنا أيام العطل، حنانك وضحكتك البريئة التي أتمنّى أن تبق دوما على محياك، لطفك ونصحك، والكثير من الأشياء الّتي لم أفعلها مع أحد قبلك ولا أظنّ أنّني سأثق في أحد بعدك، لطالما كنت مميّزا بالنسبة لي، أتمنى لك النجاح والتوفيق في حياتك القادمة.*

صديقتك المحبة...أميرة

وداعا

وما إن وصل إلى كلمة وداعا حتى أطلق العنان لصرخة خرجت من أعماق قلبه، صرخة تمنّى لو أنّها أخرجت معها كل تلك الذكريات والأيّام التي مرت، راوده إحساس أنّه لم يكن إلاّ دمية تسلّت بها أميرة طوال تلك الفترة، شعر بخيبة كبيرة فالجميع كان قد أكّد له أنّها لا تصلح لتكون صديقة لكنّه عاندهم جميعا وحاول فلم يجن إلاّ الألم، خرج بسرعة من هناك إلى أقرب مكان يوفر له الوحدة التي يحتاجها، تكلّم كثيرا مع تلك الرسالة، أخرج كل الألم والغضب اللذان كانا قد حلاَ بقلبه عليها، ثم عاهدها أنّه سيمسح من عقله كليا أميرة ولن يسمح لشيء أن يذكره بها، توجّه إلى أقرب كشك هناك، واشترى علبة سجائر مع ولاّعة، وعاد إلى ذاك الكرسي يجرّ رجليه بدل أن يمشي، وأشعل أوّل سيجارة له في حياته وبنفس الولاّعة أحرق الرسالة بتلذّذ مؤلم، انتابته كحّة قوية كان يعلم بقدومها، لكنّه سعى إليها، كان يريد أن يطرد كل ما يتعلّق بأميرة من صدره، أراد أن ينفثها مع كل نفس يخرج مجبرا منه، وخيّم الحزن على روحه المرحة وكبُر فجأة، لكنّه كان مصمّما أن يبدأ من جديد، خالد لا يشبه أبدا الأوّل الذي يستطيع الكل استغلال طيبته، التي أصبح يراها ضعفا وسذاجة.

كثيرا ما يكون تصرف الآخرين مؤثّرا بطريقة أو بأخرى على تصرفاتنا وشخصياتنا، قد تدفعنا للبذل أكثر أو للاكتفاء بأنفسنا، حتى دون علمهم أو رغبتهم في ذلك، وطرق فهمنا لغيرنا أيضا ترسم لحياتنا مسارات مختلفة، وهذا تماما ما مرّ به خالد، لم يفهم أبدا أن أميرة لم تستغلّه بل أخبرته منذ البداية أنّها لا تريد صداقات، كما أنّها تهتمّ بمستقبلها أكثر من أيّ شيء آخر، كانت واضحة جدّا معه، أنانية لكن صادقة منذ البدء، غير أن البشر يستمتعون بتحميل اللّوم على غيرهم حتى ترتاح ضمائرهم. ونهاية قصته مع أميرة كانت بداية حياة أخرى تشبه كثيرا حياتها، عمل...عمل...ولا شيء إلاّ العمل.

افهموني... اسمعوني

يا من كنت لا أخشى أن يتّهموني بالجفاء

من كنت أظنهم يقدرون ما أحس من عناء

فلتعلموا

أنتم من عالمي الهواء

أنتم من جسدي القلب والعيون

أنتم من أخاف عليهم جور السنون

طعنتني منكم تلك الظّنون

أنّي لكم قد أخون

أ أن أحب مستقبلي جريمة؟

وأرى في أفكاري أنّها سليمة

أمر يستحق الضغينة؟

اسمعوني واسمعوا نبض قلبي باسمكم

وافهموني إني وإن اخترت الغياب أحبكم

# - ٤ -

أعلنت أميرة بداية جديدة لنفسها هي كذلك، رغم كل المخلّفات السيئة التي علقت بنفسيتها من معاداة أهلها وخالد لها، لكنّها ركّزت كل حواسها لأجل عملها الجديد، أصبحت أشبه بروبوت، تفيق مع أوّل رنّات المنبّه، تتوجّه إلى حمّامها لتغسل علامات النّعاس من وجهها، ثم تلبس تلك البدل الرسمية، سراويل سوداء مع قمصان بيضاء على حجمها تماما، يعلوهم عادة معطف أسود كذلك تزين جيبه العلوي بمنديل أبيض حريري ناعم كنعومة ذوقها، تجمع شعرها كلّه على شكل ذيل الحصان ممّا يزيد من صرامة تفاصيلها، تجلس بعدها لخمس دقائق أمام مرآتها لتضع ما تعتقد أنّه ماكياج، مجرّد كحل بسيط لعيناها الواسعتان، وملمع شفاه يختفي بعد بضع دقائق، لم يكن مهمّا جدّا دوامه من عدمه لديها، لكنّها تهتم أكثر بخافي

الهالات السوداء، تريد أن تخفي كل علامة للضعف والتّعب، ثم تمشي خطوتين إلى مطبخها لتضع كيس من النسكافيه في فنجان من الماء السّاخن جدا، تشربه على عجل، تعود لغرفتها لتحمل حقيبة يدها، وتلقي نظرة خاطفة على الغرفة حتى تتأكّد أنّها لم تنس شيئا، ثم تقف أمام المرآة مجدّدا تعدل معطفها وهي تمسك بطرفيه تلف يمينا و يسارا، تلبس أخيرا حذاءها ذو الكعب العالي، فهو يزيد من رونق طلّتها، وتغادر بذلك شقّتها متّجهة إلى الشركة في سيّارتها الخاصّة، التي بمجرّد أن تركبها تخرج هاتفها الذكي من الحقيبة، وتبدأ بتصفح آخر الأخبار الاقتصادية والاكتشافات الحديثة، وتحفظ كلّ ما تراه مهما لتعيد دراسته ليلا حال عودتها إلى البيت.

ما إن تصل إلى مقرّ عملها تصعد مباشرة إلى مكتبها، ودون أيّ تأخر ولا لأيّ سبب تشرع في مهامّها اليومية وتغرس كلّ أفكارها في أوراقها، تستقبل اتصالاتها بكل جدية، يكاد ثغرها ينسى الابتسام، إلاَّ من تلك البسمة الصفراء الّتي تقدّمها عند الضرورة القصوى، ورغم أنّ الشركة تعجّ بالموظفين، إلاّ أنّها كانت وحيدة تماما، لا تسمح لأحد أن يلقي التّحية عليها إن لم يكن لعمل، فقد تأثّرت هي أيضا بقصّتها مع خالد، ولامت

نفسها كثيرا أنّها سمحت له بمحادثتها ومصادقتها، لو لم تفعل ذلك لما كانت مضطرة لكتابة رسالة وداع أحرقت قلبها، فهي أيضا تعلّقت بذلك الفتى البريء، كان سلوتها الوحيدة في غربتها، حتى أن الشك قد راودها أنّها أحبته، لكن أنانيتها كانت دائما تقف على قارعة الطريق تناديها أن تتقدّم، فالنجاح ينتظرها، وحتّى هؤلاء الأحبة ستجدهم ينتظرونها عندما تصل، وكأنّها كانت واثقة جدا من حبهم، ومن صفاء قلوبهم.

ما إن تدقّ الساعة الثانية عشر، تحمل حقيبتها كي تغادر الشركة للغداء، تمشي مرفوعة الرّأس بخطوات محسوبة بدقّة، تقصد نفس المطعم، لتطلب نوعا من أنواع السلطات يجب أن تكون قليلة الدسم إلاّ من الضروري، مع حساء ساخن، قد يكون حساء العدس أو السمك، قطعة مشوية من صدر الدجاج، أو فيلي السمك أو حتى فيلي البقر، فهي تهتمّ جدّا بصحّتها ورشاقتها، لا تدخل تحت مظلة "المرأة الذكية ليست جميلة". الناظر إليها لا يمكن إلاّ أن يقول أنّها امرأة شيك راقية جدا. تدفع الحساب وتعود أدراجها إلى مكتبها، وتواصل دوامها المسائي بنفس الوتيرة الصباحية دون كلل أو ملل.

تدقّ الساعة السادسة معلنة نهاية دورها داخل ذلك المكتب الكئيب، وتعود إلى شقتها الأكثر كآبة، تلبس منامتها وتحضر كوب شاي دافئ، ثم تجالس حاسوبها لتنهي ما بقي عالقا من عملها، وما إن يدقّ الجوع أبواب بطنها، تقوم لمطبخها وتحضّر سلطة سريعة مع بعض الفاكهة، تتناولهم على شرفتها تتأمّل القمر صديقها الوحيد، تناجيه إلى منتصف الليل، ثم تتركه إلى مكتبتها، تقرأ صفحة من أيّ كتاب يعجبها، لتخلد في نهاية المطاف للنّوم حتّى تستعد ليوم آخر لا يختلف عن سابقه إلاّ في تفاصيل بسيطة، كلون طقمها، أسود، رمادي أو أزرق قاتم، أو أن يختلف حساءها فقط لا غير، في بادئ الأمر كانت تتّصل بسليمة في أوقات عمل عمر حتّى لا تزيد من غضبه، لكن كانتا تقضيان معظم المكالمة في البكاء، ما جعل أميرة تقلّل من عدد هذه المكالمات حتى كادت تنعدم، صوت بكاء أُمها كان يزيد من إحساسها بالذنب، ويغمرها بكم هائل من الحزن.

استمرت حياة أميرة بنفس المخطّط لشهور عدّة، كأنّها قد سطرته ومشت على خطوطه، ومستواها العملي في تقدّم دائم، كابدت وحدتها وحزنها، وظلّت دائما تلك القوية المثالية، لكن

البقاء في القمة كان أصعب بكثير من طريقها إليها، فقد بدأ يشعرها بالتعب شيئا فشيئا، فتر نشاطها قليلا، وبعد فترة أطول، أصبحت أخطاءها تظهر، وحالة الاكتئاب في جسدها تنتشر، رأسها المرفوع المعانق للسحاب، راح يرضخ قليلا، لدرجة جعلت إدارة الشركة تلاحظ ذلك، فما كان منهم إلاّ أن طلب المدير مقابلتها للحديث في الموضوع، للاستفسار عن سبب هذا النزول الواضح في مستواها، لم يكن لها جواب غير أنّها طلبت إجازة مفتوحة تريح أعصابها، وأقنعته أن عودتها ستكون قوية كما عهدها دائما، رغم غضب المدير وإحساسه بخيبة أمل إلاّ أنّه وافق شرط أن لا تكون إجازتها مدفوعة الأجر، فوافقت هي الأخرى على شرطه مرغمة لا راضية.

خرجت متطأطئة الرأس تحسّ بألم الفشل فوق كلّ ذلك الحزن، اتّجهت إلى مكتبها جمعت ما تحتاجه في حقيبتها وخرجت عائدة إلى شقّتها، لكن في الطريق خطر لها أن تزور طبيبا نفسيا علّه يساعدها لفهم حالتها.

جلست في غرفة الانتظار مثقلة بالملل حتى حان دورها، رغم أنّها لم تجد رغبة في الكلام إلاّ أنّها اختصرت حالتها في كلمات.

*كان كلّ شيء على ما يرام لكن بدأت أفقد تركيزي ونشاطي، أفقد نجاحي وقوّتي، أنا هنا اليوم فقط لأعرف السبب، أريد أن أعود أميرة التي جاءت من وهران إلى هنا وكلّها طاقة وحيوية تعمل دون كلل...*

*سيّدتي أعتقد أنّ الموضوع ليس أكثر من ضغط العمل، لم تحتملي وتتعوّدي على هذا القدر من النّجاح، خذي إجازة وسافري، تجوّلي في الطرقات بلا هدف، اخرجي من الصندوق الذي دفنت نفسك فيه.*

قبل أن يكمل الطبيب كلامه كانت هي تتجهّز للخروج، وكأن ما قاله لم يكن مقنعا، فهي منذ صغرها لا تنجح إلاّ بالضغط، لم يكن العمل الكثير مفاجئا لها، قرّرت أنّه طبيب سيّء لم يستطع أن يفهم حالتها، علّه لم يقابل شخصا يشبهها قبلا.

عادت إلى شقّتها التي لم تخرج منها بعد ذلك اليوم، حبست نفسها داخل جدرانها، حتى مقتنياتها وأكلها وكل ما تحتاجه، كانت تطلبه من السوبر ماركت القريب بالهاتف، تصرف من مدّخراتها التي جمعتها من يوم وطأت قدماها كندا، أصلا لم

تكن طلباتها كثيرة حتى تحتار من أين تأتي بالنّقود، تعيش بلا هدف فقط لتغذي ذلك الحزن داخلها وتزيد من كآبتها لا تفعل شيئا لتغير وضعها، لم تجد في نفسها رغبة لذلك، فكّرت في العودة إلى الوطن لكنّها غير مرحب بها هناك أيضا...

طالت حبستها تلك من أيام لأسابيع وحتى شهور، لم تتحسّن حالتها أبدا بل كان في تدهور مستمر، غزا الشحوب وجهها، وحتّى عيناها الواسعتان ذبلتا من حالتها النفسية، غذاءها وعشاءها أصبح مجرد فتافيت لا تشبع حتّى عصفورا، تكفي فقط لتبقيها على قيد الحياة لا أكثر، تشغل كل وقتها بكتب لم تكن لتقرأها طول حياتها، أصبحت مدمنة على الروايات الأليمة والنّهايات الحزينة، أصبحت ترى فيها همّا أكبر من همها فتتصبر، فيقال من رأى مصائب غيره هانت عليه مصيبته.

في إحدى تلك الليالي التي لا تشبه شيئا إلا سوادها، وبرد كندا قد تخلّل كلّ مكان، كانت أميرة تجلس منكمشة في كرسيها وعليها غطاء يغطي رجليها، يد تحمل كتابا قد مالت رقبتها وهي تركز معه، تضع يدها الأخرى على خدها، فإذا بها تسمع طرقا خفيفا على بابها، انتابها القليل من الخوف فالوقت متأخّر

وهي لا تعرف أحدا هناك ليزورها، لكنّها تشجّعت وقامت بخفّة حتّى لا تصدر أي صوت، وضعت عينها على تلك العين السحرية للباب، لكنّها لم تر شيئا، فتحته ببطء وهي تلقي بنظرها من الشق البسيط الذي أنشأته بين الباب والجدار، غير أنّها لم تجد أحدا، ثم نزلت بنظرها، لتلحظ شيئا غريبا قد وضع أمام عتبتها، فتحت الباب كليا لتعرف ما ذاك، كانت عيونها تجول في أرجاء الدّرج علّها ترى ما يجعلها تفهم ما الذي يحدث، أو الشخص الذي ترك هذا الشيء عندها، لكن لم توفق في رؤية أيّة حركة.

كانت مجموعة من أغطية ملفوفة كالساندويتش، نزلت بقامتها الهيفاء لتعرف ما بداخلها، سحبت الغطاء بهدوء، ثم شلت الدهشة حركتها بعدما وجدته، ما هذا الجنون؟ من يمكن أن يرمي رضيعا أمام شقّتها، تراجعت إلى الداخل بعد أن أحسّت ببعض الخوف وأغلقت الباب ثم ألصقت عينها بتلك العين التي به، حتّى ترى إن كان سيرجع لأخذه أحد، انتظرت وقتا من الزمن لكن دون جدوى، لم تجنِ إلاّ البرد والسكون، رجعت إلى كرسيّها وغطائها وكتابها، بيد أن بالها ظلّ ملتصقا بالباب.

فجأة سمعت بكاءه يعمّ المكان بعد صرخة قوية صدرت من جسمه الصغير، صرخة جعلتها تنتفض مسرعة إليه، فتحت بابها بلهفة والتقطته من الأرض، لم تعرف كيف يمكن أن تمسكه بطريقة صحيحة، وضعت كلتا يديها تحته، وهي تقول الشّيء الوحيد الذي خطر ببالها "شووووشووووو"، لكن الرضيع لم يسكت، أدخلته معها إلى البيت، ظلّت تمشي به علّ بكائه يهدأ، لكن دون فائدة، خطر ببالها أنّه قد يكون جائعا، لكنّها لا تملك شيئا للأطفال، أصلا ماذا يأكل الأطفال الرّضَع، وضعته على سريرها واتّجهت إلى المطبخ، قامت بتدفئة قليل من الحليب ووضعته في كوب وعادت إليه، لكن كيف سيشرب رضيع مثله من كوب؟ أحضرت بعدها ملعقة صغيرة، وراحت تحاول إعطاءه ولو كمية قليلة، نسيت وقتها تلك التّساؤلات التي انتابتها بشأن هذا الغريب ومن أين أتى وابن من هو؟

مع كثير من الفوضى والحليب الذي بلّل أعلى ثيابه، لكنّه سكت أخيرا وخلد للنوم من فرط التّعب، تفطنت بعدها إلى إمكانية أن تكون وسط ثيابه رسالة ما، تساعدها لتفهم من أين سقط هذا الملاك، قلَبته جيّدا محاولة أن لا تزعجه حتى لا يبكي

مجدّدا لكنّها لم تجد شيئا أبدا، جلست بعيدا عنه تراقبه، لم يغمض لها جفن طول تلك الليلة، كلما أفاق تحمله وتهزّه كي يعود للنّوم مجدّدا، ثم تعود هي للتفكير فيما ستفعله به عندما تشرق شمس هذه الليلة الطويلة، اهتدت أخيرا أن تنتظر إلى غاية منتصف نهار الغد فإن لم يسأل عنه أحد، تأخذه إلى أقرب دار أيتام حتى لا ترميه في الشارع.

كانت الساعات تمرّ بطيئة جدا في نظرها، لم تتعامل قبلا مع طفل منذ أن كان خالد صغيرا، كل ما كان يجمعها بهم نظرة بسيطة وابتسامة وتلك الجملة التي لا تمل من تكرارها "ما شاء الله حفظه الله لك"، أمّا الآن فقد اضطرّت للاعتناء بواحد ليلة كاملة، وإعطاءه الحليب وإسكاته في كلّ مرّة يبكي فيها.

ما كادت الشّمس تنشر كل أشعتها على المكان حتّى اتصلت أميرة بعامل السوبر ماركت لتطلب منه حليب أطفال وقارورة مخصّصة لترضعه بها بدل الملعقة، وحفّاظات لطفل حديث الولادة، وما إن وصل طلبها حتى قامت بتحضير الحليب وتقديمه لذلك الرضيع، كل هذا وهي على أعصابها تنتظر قدوم أحد لأخذه أو بلوغ الساعة الثاني عشر لتأخذه هي إلى الميتم.

الوقت يمرّ...يمرّ.. ويمرّ ولا شيء تغيّر الطفل يبكي من ساعة لأخرى وهي تصارع مكتسباتها حتّى تستطيع التأقلم مع الوضع، رنّ منبهها فجأة وهي تحمل الرضيع تتأمّل تفاصله الصغيرة، الساعة وقتها كانت الحادي عشر ونصف، أرجعته إلى السّرير، ثم توجّهت إلى خزانتها لتختار ما ستلبسه، كانت جد متوتّرة فهي لم تخرج من البيت منذ فترة طويلة، رغم أنّها لم تكن جاهزة لمواجهة النّاس لكنّها تحترم كل كلمة تصدر منها وقراراتها حتّى وإن كان أمام نفسها فقط، تشجعت بكبريائها سلاحها الدائم الذي لم يتخل عنها ولو لمرّة واحدة، وتأنّقت كعادتها بملامحها الرسمية، حملته بين يديها وخرجت من البيت والخوف ينهشها من الدّاخل، لكن ثباتها الظاهر لا يوحي بذلك أبدا، لم يكن هناك سيارة خاصة تنتظرها، فقد سحبتها منها الشركة بعد أن توقّفت عن العمل، ولولا نبوغها الذي طمعت فيه الإدارة، لكانت قد طردت كليا من وظيفتها، انتظرت قليلا حتّى وصلت سيارة الأجرة، اقتربت منها ولم تقل شيئا سوى أن طلبت من السائق أن يتّجه لأقرب دار أيتام يعرفها، السائق الذي استغرب طلبها لكنّه مجبر أن ينفذ دون

نقاش، فتح لها الباب وساعدها على تعديل جلستها وهي تمسك ذاك الطفل.

لم يمنعها جفاءها واكتئابها من أن تخرج هاتفها من الحقيبة وتلتقط صورة لذلك الملاك بين يديها، ملاك بملامح سمحة حلوة، بشرة بيضاء وعيون ملوّنة زادته جمالا، غير أنّه نحيل الجسم، راحت تلاعبه، فالأطفال وحدهم يستطيعون سحبنا إلى عالمهم النّقي دون تأشيرة نقطعها من عقولها قد تُقبل أو تُرفض، تلك البراءة تجعلنا نعود بعفوية لزمن كانت فيه أكبر همومنا من أين نأتي بخمسة دنانير لشراء الحلوى، نرى الكلّ أصدقاء، والحب يسكن كل تفصيل بسيط من أيامنا، أفاقت من غوصها معه على السائق يخبرها أنّهم قد وصلوا، سلّمته أجرته ونزلت وهي لا تزال مصرّة على تركه هناك.

دخلت من الباب الكبير الذي قابلها بعد أن تبعت إشارة أصبع السائق، وجدت بعده مباشرة حديقة كبيرة يبدو أنّها مخصصة للعب أطفال الدار حيث كانت تعج بهم وبصراخهم وضحكاتهم، بدأت أميرة بتأمّل تلك الوجوه الصغيرة التي تشبه لوحات فنية، كانت اللامبالاة بارزة على محيا الصغار منهم، يلعبون ويستمتعون، لكن وجوه الكبار منهم وعيونهم

لم تكن تمت ولا بنسبة صغيرة للسعادة، نادت أميرة على أحدهم، فأتاها مسرعا وقد سرت البسمة إلى شفتيه.

*هل أحضرت لي هدية معك سيدتي، أريد دفترا للرسم.*

*آه لا نسيتها آسفة، كنت أودّ أن أسألك أين يمكن أن أجد المدير؟*

*الإدارة؟ هل ستتركين هذا الطفل هنا؟*

*كيف عرفت أيّها الذكي، نعم إنّه صديقكم الجديد.*

*كلكن هكذا قاسيات، في كل مرّة يحضرون طفلا مثله إلى هنا، حتى أمّي تركتني وأنا رضيع هنا ولم تسأل عنّي أبدا، يبدوا أنّكم تفكّرون أن المكان مريح، لكننا نكبر داخله ناقصين، أرجوك سيدتي احتفظ بابنك، لن أخبرك عن مكان المديرة غادري.*

وهرب منها تاركا إيّاه مكتومة الصوت، أسكت هذا الفتى شفاهها لم تجد بما تجيبه، خرجت من الميتم واتجهت إلى أقرب مكان أمكنها الجلوس عليه، وأخذت تفكّر في كلامه ووضعها، هي أيضا ناقصة من الدّاخل لم تجد ما يملأ وحدتها، وهذا

الطّفل الجميل ألا يستحقّ بيتا يضمّه، أم وجه عسل بحظ كالحنظل، تلقي نظرة إليه تفكر فيه وأخرى للأفق لتفكر في حالتها ووضعها طول هذه الشهور التي مرّت وهي محبوسة بين تلك الجدران لا تكلّم أحدا والوحدة تقتلها، شيء ما داخلها كان يقول لها "احتفظي به قد يعود أهله إليه أو حتى يؤنسك في غربتك" وشخص آخر يصرخ "ما ذنبك حتى تربّي طفلا لا علاقة لك به، قد لا يعود أحد لأجله أبدا"، تحضنه بقوّة لأجل الصوت الأوّل وتفكّر أن تعود للميتم لأجل الصوت الثاني، لا تستطيع حسم أمرها ولا بأيّ طريقة.

نظرات ذاك الملاك وضحكاته كلّما حضنته أو نظرت إليه، جعلتها ترفع راية الصوت الأول وتقرّر أن يكون هذا الطفل جزءا من أيّامها القادمة إلى أن تجد حلا آخر غير الميتم، ضمّته هذه المرّة بفرحة وهي تقول: "ستكون رفيقي في الأيّام القادمة يا خالد، هذا هو اسمك، هل أعجبك؟"

حملته واتّجهت إلى السّوق، دخلت محلّا كبيرا خاصا بكل احتياجات الأطفال، وبما أنّها لا خبرة لها في ذلك طلبت من الموظّفة هناك أن تنتقي لها ما سيكون ضروريا لخالد، وجلست تنتظرها حتّى تجمع لها ما طلبته، ثم دفعت الفاتورة وعادت إلى

حيّها السكني، ودخلت إلى السّوبر ماركت لتشتري أشياء أخرى التي حتّى لم تكن تعرف ما هي، دخلت الرواق المخصّص لأكل الأطفال والرُضّع، كاد يغمى عليها من كثرة العلب والماركات، كانت ضائعة ما الذي يجب أخذه وأيّها هو الأحسن، لولا أنّ إحدى السيدات قد دخلت بعدها إلى هناك ولاحظت الحيرة على محياها فعرضت عليها المساعدة، والتي قبلتها لأنّها لا تملك خيارا آخر كما أنّها سألتها عن أمور قد تساعدها لتعتني به، وكيف يمكن مثلا تحضير وجبته اليومية، وأيّ الأوقات أحسن للأكل، ومتى تجعله ينام...والكثير من الأسئلة حتّى تكون كعادتها على قدر مسؤوليتها.

أهلا... اشتقت لي

وحنيني يسبقني إلي

حياتي صارت كجملة بلا معنى

دمع يرقص على ما كان للضحك لحنا

روحي اختزلت رونقها فيما كان للسواد لونا

كأنني أصارع الهواء سجنا

وجريمتي لم أدرك لها اسما

حتى عطف القدر علي

وفي طريقي رماك

وضحِكت لدمعي عيناك

نسيت ما كنت عليه

وألقيت روحي بين يديك

فأهلا بك وبمحياك

يا خلاصا لي من كل هلاك... أهلا

# - ٥ -

الفوضى في كل جزء من الشقة، صراخ خالد يملأ المكان، وأميرة تركض في أرجاء المطبخ لتحضير الرضّاعة، كانت تائهة جدّا لا تعرف ما يمكن أن تفعله مع خالد، هي لم تعتنِ بطفل قبلا، لم تتعلّم أن تفهم كل صرخة ما مرادها، تلك التي يريد بها النوم، وأخرى للجوع، وواحدة خاصة لتغيير الحفّاظة، كانت تفعل كلّ شيء مرّة واحدة المهمّ أن يهدأ، لكنّ أغلب الوقت تفشل في ذلك، لم تستطع أن تخترق عقل هذا الرّضيع وتقرأ ما بداخله.

بعد تحضير الحليب عادت إليه ووضعته بين ذراعيها وحاولت إرضاعه دون أن يختنق أو يحترق، هذه المرّة سكت خالد، وبعد برهة توقّف عن الرضاعة ونظر إليها بعينين

ذابلتين فتوقّعت أنّه متعب يودّ أن ينام، وضعته في حجرها وهي تهزّه قليلا وتدندن له إحدى تلك الأغاني التي سمعت أمّها تكرّرها على أولاد الجيران، تلك الأغنية التي خطفتها فجأة من عالمها ولحظتها، نسيت في ذلك الوقت خالد وتذكّرت سليمة وتلك الأيام الجميلة في وطنها، كيف كانت سعيدة ولو بأبسط الأشياء، أحسّت برغبة جامحة في ضمّ أمّها، لكنّها بعيدة جدا، بعيدة بإرادتها، خجلة من صوت والدتها ودموعها التي تنهمر في كلّ مرة بسببها، وضعت خالد على السرير، وجلست منكمشة كأنّها تحضن نفسها وقد التصقت ركبتاها بجبينها، وانفجرت بالبكاء، بكاء مرير كان يخرج من أعماق قلبها، عرفت بعد ذلك ما كان ينقصها وسط كل ذلك النجاح الذي بلغته، لِمَ لَمْ يكن له طعم الانتصار ولمَ تدهورت حالتها النفسية، كانت تنقصها العائلة، أمّ تحنو عليها وأب يحميها، وقد خطر لها أن يكون عدم رضاهم عليها هو السبب أيضا، كان ينقصها وقتها أصدقاء يشاركونها ضحكاتها يمسحون دمعها كما كان يفعل خالد، يرفعونها حتى قبل أن تقع، عرفت أن كلّ ما مرّت به خلال هذه الشّهور كان من صنع يديها لا يلام عليه غيرها، لكن لا مجال للعودة إلى الوراء فهي الآن قد وقعت عقدا طويل

الأمد، ومزّقت كل ما قد يربطها بخالد حتّى وإن أمكن أن يعود إلى كندا، بكت يومها كما تبكي طفلة تائهة في غابة كثيفة الأشجار لم يكتب على جذوعها إلاّ الوحدة، بكت كمد كل تلك الشهور الفائتة التي لم تعرف لحالتها سببا فقد كانت ترى حياتها كاملة كما تمنّتها لنفسها، لم يقطع بكاءها إلاّ بكاء خالد مجدّدا، نظرت إليه بكثير من الأمل أنّه النور الوحيد وسط ظلمتها.

لكنّها لا تحسن التعامل معه، وهذا ما عليها أن تجد له حلا الآن حتى لا تتعب هي وتتعبه معها فقد مرّ يومان ولم يعد أحد لأجله، وكل فيديوهات اليوتيوب لا تكفي للاعتناء برضيع، وقتها عرفت أنّها يجب أن تطلب المساعدة وتضع كرامتها جانبا قليلا، اكتشفت أنّها غير ما كانت تفكّره عن نفسها، فهي ليست المرأة الخارقة التي تستطيع فعل وتحمّل كلّ شيء بمفردها، وحمل هذه الدنيا على عاتقها.

حاولت هذه المرّة أيضا إسكاته، لكن دون جدوى، خرجت به للشرفة وهي تحاول التفكير فيم ستفعله مستقبلا، ثم حملته وخرجت به لتتمشى قليلا، كانت متّجهة إلى السوبر ماركت كان واضحا أنّها وجدت حلا مناسبا لوضعها فسرعة

بديهتها هي من تنقذها دائما، لكنّها لاحظت شيئا غريبا في الشارع، عيون الجيران كانت تتفحصها وخالد، من أين أتى هذا الطفل بعد عزلتها الطويلة في شقتها، فالجميع يعرف أنّها لم تتزوج، قرأت تلك التساؤلات في أعينهم، لكن لم يحرّك في همّتها شيئا ولا حتّى نفسا للتحسر، فهي تعتبر كلام النّاس كالغبار قليل من الأف ويختفي، أكملت طريقها غير آبهة بأحد.

دخلت وقصدت العامل هناك مباشرة، أخبرته أنّها تبحث عن مربية تستطيع البقاء معها طوال اليوم، بما أن من يأتون إلى هناك كثر فإعلانها سيجد قارئين كثر، وستجد طلبها بينهم، طلبت ورقة بيضاء دوّنت عليها ما تشاء من مواصفات ورقم هاتفها زائد العنوان، ودفعت له ثمن وضعه للإعلان على واجهة المحل، ثم سحبت علبة حفاظات ودفعت ثمنها هي الأخرى وخرجت راجعة من حيث أتت، بكثير من الراحة وهي تكلّم خالد أنّها أمّه من هذه اللحظة فصاعدا ولن يحتاج لشيء بعد اليوم وستحاول قدر الإمكان ألا يكون ناقصا كأولاد دور الأيتام.

بعد ساعة أو أقلّ رنّ جرسها، لم تفتح الباب مباشرة، لكنّها حاولت أن تعرف من الطارق من خلال ذلك الثقب الذي

وضع خصيصا لأصحاب النفسيات الغريبة كأميرة، رأت شابّة يبدو القلق والتوتر واضحين على وجهها ذو العيون المنكسرة، والأنف المنحوت والفم الذي اختفت شفتاه بين أسنانها من الارتباك، فتحت لها الباب وهي تواصل تفحُّص قدها الجميل وثيابها التي يعلوها معطف أحمر طويل، دون أن تسألها ماذا تريد.

*مرحبا سيّدتي، أنت... أنت من طلبت مربية؟*

*نعم، هل أنت هنا من أجل العمل؟*

*نعم كنت أودّ أن أتصل بك قبل أن آتي إلى هنا، لكنني لا أملك هاتفا وحاليا لا أملك حتى نقودا لأكلمك من أيّ هاتف آخر.*

*يعني محتاجة للعمل جدا، هل تملكين خبرة في تربية الأطفال؟*

*أجل، كنت أعمل في حضانة من قبل اضطررت لتركها بسبب تأخّري الدائم، كنت أقطن بعيدا جدا عنها ومعاشي لا يكفي لسيارة أجرة كل يوم.*

*تفضلي حتى نكمل الكلام في الداخل فقد نتفق.*

دخلت الشابة وهي تفرك كلتا يديها بقوّة، كانت تبدو خائفة من شيء ما، قد يكون رفض أميرة لها أو طباع هذه المرأة الصارمة التي انهالت عليها بالأسئلة حتى قبل أن تسمح لها بولوج البيت، صادف دخولها بكاء خالد الذي لا يفعل شيئا سوى البكاء، نظرت إلى أميرة لتأخذ الإذن لحمله، ثم سحبته بهدوء إليها، ضمّته إليها وهي تروح يمينا وشمالا تقرب شفاهها من جبهته لتقبله، هدأ خالد بسرعة وبدأت جفونه تنزل ببطء كأنّه ينزل أستار الصحو ليدخل مدن النّوم والأحلام السعيدة، إلى أن استسلم نهائيا للنّوم أعادته الفتاة إلى مكانه ووقفت بانضباط أمام أميرة، تنتظر تكملة الأسئلة كأنّها اقترفت جريمة وهي في جلسة تحقيق.

*مم يبدو فعلا أنك خبيرة، مع أنك لا تزالين شابة صغيرة.*

ثم مدّت يدها إليها مسلِمة ومع ابتسامتها التي تلجأ إليها عندما تود أن تخفي شيئا من صرامتها.

*أميرة، والدة خالد (وأشارت بيدها للرّضيع) ولأنّه أوّل تجربة لي فلم أستطع التأقلم مع الوضع وأظنّني سأحتاج إليك، إن كنت قبلت البقاء هنا طيلة اليوم على الأقل حتى أتعلم.*

*تشرفت بك سيدتي، أنا لين وطبعا أقبل حتى لو طلبت مني المكوث ليلا فلن أمانع.*

*فعلا يمكنك ذلك؟ إذا أنت بالضبط من تناسبني، يبدو أننا سنتفق ولن أحتاج لمقابلة غيرك، من اسمك يبدو أن لك علاقة بالعرب أ ليس كذلك.*

*أجل أصبت سيدتي، أنا عربية مغتربة هنا.*

*أنا كذلك عربية كما هو واضح من اسمي وابني، من الجزائر، على كل ستحكين لي قصتك فيما بعد الآن علينا أن نتحدث بشأن أجرك وتعليمات عملك.*

كانت أميرة تبدو شكلا كأميرة فعلا تأمر خادمتها، تنظر إليها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وهي تملي شروطها، لا يجب أن تترك خالد يبكي أبدا، عليها أن تبق بقربه في كل ثانية، هي مسؤولة عن كل احتياجاته ومتطلّباته، يجب عليها أن

لا تحتك أبدا بالجيران ولا حتى الخروج من البيت برفقة خالد لوحدهما، يجب ألا تقترب من أيّ شيء في الشقة دون إذن منها، والكثير، الكثير من الأوامر كأنّها في ثكنة عسكرية، كما أنّها نبهتها ستبقى لفترة تحت المراقبة وبعدها يكون القرار النهائي.

وافقت لين على كلّ ما قالته أميرة دون أيّ نقاش، كان واضحا أنّها في حاجة ماسة للعمل، ولم تستغل أميرة ذلك بل قدّمت لها من الثياب ما تحتاجه، وأخبرتها أنّها ستعيش معها هذه الفترة كفرد من العائلة تأكل معها، تجلس في نفس الغرفة التي تبقى فيها حتى يبقى خالد بقربها دوما، حتى أنّها طلبت منها أن تنام في نفس الغرفة، بما أن البيت لا يحوي إلا غرفة وبهو ومطبخ، شكرتها لين على ثقتها بها، والتي ذكرتها أميرة أنّها ليست نهائية فلتحذر نفسها.

تعوّدت لين على خالد بسرعة وتعوّد هو الآخر عليها، أصبح يحب البقاء في حضنها، لا يأكل إلاّ من يدها، وأميرة مرتاحة للوضع أيضا فقد لاحظت تحسن حالة الطفل معها، وكما أنّها لم يبدر منها ما يزعج أميرة، بمرور الوقت حلّت السعادة على البيت كله، وحتى نفسية أميرة تحسنت جدّا، لدرجة أنّها قررت بعد مرور أسبوعين من قدوم هذين الغريبين

أن تعود للعمل، عادت من جديد كتلة من النشاط، بدأت تعود إلى أميرة القديمة قبل تلك الأزمة التي انتابتها.

لم تضيّع فرصة الإحساس الجميل أنّها أميرة المصمّمة على النجاح واتّصلت بالشركة طالبة أن تعود، رغم أنّها واجهت بعض العراقيل إلا أنّها وجدت طرقا لإقناع المدير أنّها نفس تلك الفتاة التي وقع العقد معها وينتظر منها الكثير، وما إن أقفلت الخط معه بعد أن سمعت موافقته، اتّصلت بمكتب خاص بالتجهيزات المنزلية لطلب كاميرات منزلية مع العامل الذي يركبها لها وتركت له العنوان وأخذت منه موعدا لذلك، فرغم كلّ شيء هي لم تثق تلك الثقة العمياء بلين، ثم اتّصلت بمحامي حتى تسأله كيف يمكن لها أن تكفل طفلا بأوراق رسمية، كانت مقدمة على الحياة أكثر، مخطّطة لخطواتها القادمة حاسمة أمورها، وختمت تلك المكالمات بواحدة أخيرة لسليمة، قدّمت لها كل أعذار الكون لكلّ دمعة نزلت منها، لكل ليلة بات الحزن يقبع بقلبها، وأخبرتها أنّها في أول فرصة تجدها لتعود للوطن ستفعل ذلك، وطلبت منها أن تستسمح لها عمر وأن تخبره أنّها مشتاقة جدا له، وأنّها تودّ سماع صوته مجدّدا، طالبة الرضا منهما، فلم يلبث صوت سليمة أن تحوّل إلى

صوت رجل، كان عمر يستمع لكل حرف منها، فهو الآخر كان يتحرق شوقا لطفلته مهما ادّعى أنّه لا يريدها في حياته.

نامت أميرة ليلتها وهي أسعد إنسانة في الكون، كان النقص الذي يملأ روحها قد اختفى، عوّضه وجود هذا الطفل الصغير الذي شغل كل وقتها وأعطته بدورها كل حبّها، وحتى وجود لين كان له تأثيره فرغم أنّها لا تتكلم كثيرا إلا من تلك الجمل المكرّرة " حاضر سيدتي" "خالد يحتاج حفاظات" "حليب خالد قد انتهى" أو في بعض المرّات "خالد مريض"، إلا أنّها كانت مستمعة جيدة، تفرغ أميرة في جعبتها كل ما يدور ببالها، لا تبخل أحيانا برأيها الذي تقوله وهي خافضة صوتها خائفة أن تغضب منها أميرة، وما زاد الوضع تحسنا هو عودتها للعمل وكلمات والديها التي رفعتها إلى السماء السابعة.

أنا هنا

مذ تركت يدي

فارقت روحي جسدي

والوحدة جهزت لي لحدي

تخلّت عني الحياة

ولم يعد لها مكان عندي

لكن فجأة تذكّرت

أني مازلت هنا

بعد أن غيرك نوَر دربي

طفل على شكل نجاة

لم يناسبه غير اسمك يا قلبي

كن سعيدا

فأنا مع ظل اسمك سعيدة.

# -٦-

مرّ شهر، وبعده سنة وتلتها سنوات والوضع جميل على حاله، أميرة من نجاح إلى آخر عوّضت كل خسارتها خلال تلك الشهور الفائتة، وخالد أصبح طفلا رائعا مفعما بالحياة لا يكفّ عن اللعب، ذكي قوي الملاحظة كأنّه فعلا ابنها من صلبها فالأم من ربّت لا من أنجبت، لولا الفرق الواضح في ملامحهما، الذي كان يذكرها في كلّ مرّة أنّه ابن ليلة مجهولة حملت لحياتها السعادة بقدومه، وقد ألقت بثقتها أخيرا على شخص ما، إنّها لين وحتى أنّها قد أخبرتها عن سر خالد وأنّه ليس طفلها.

أمّا لين فهي الأخرى قد تغيّرت وأصبحت أكثر ثقة بنفسها وثباتا تشربّت من شخصية أميرة ما جعلها فتاة أخرى ليست

تلك الضعيفة التي جاءت قبل سنوات إليها، أصبحت تعرف ما تريد ومتى تريده، لم يكذب من قال "من عاشر قوما أربعين يوما أصبح منهم"، فكيف بمن عاشت سنوات والمثال الحي أمامها امرأة حديدية استطاعت بلوغ كل ما تشاء دون أن تفقد حنيتها وأنوثتها الواضحين، أن تنهض عند السّقوط، وإن كانت سببا في البعد عن أهلها ولم تستطع حتّى الآن زيارتهم بسبب خالد، والبعد عن الجنس الآخر نهائيا لنفس السبب والإشاعات التي طالت سمعتها منذ قدومه، لكن شيئا لم يؤثّر في عزيمتها.

سخّرت أميرة كل جهدها ومالها وحنانها حتى تلّبي طلبات ذاك الفتى، لا تنفكّ تسمع منه أنّه يحبّ شيئا حتى تحضره له، ولا أنّه يودّ الذّهاب إلى أيّ مكان إلا واصطحبته إليه، بسمة واحدة منه تكفي لتجعلها أسعد من ولدت النساء، وأخصّ تلك الأماكن إلى قلبه كان السيرك، فكانت أميرة كلّما سمعت عن عرض قريب منهم صحبته إليه، لا تفوته عليه، تسجّل نفسها في كل صفحاتهم حتّى تصلها كل المواعيد وعنوانيها.

وعلى عادتها بعد أن وصلها ايميل أن السيرك سيقام في وسط المدينة بعد يومين، قدمت على إجازة ليوم كامل

لتصطحبه معها، وتمضي بعضا من الوقت الجميل برفقة ذاك الفتى الجميل، كأنّه حبيبها الذي يغنيها عن وجود الكون برمّته، وما إن أرسلت الشمس أشعتها معلنة قدوم ساعات جديدة مضيئة ليملأها كلّ بما يريد، أفاقت أميرة وأيقظت خالد وتجهّزا، ثم أخبرت لين أنّها مَنِحت إجازة حتى تستريح من العمل قليلا، لين التي اقترحت أن ترافقهما إن لم يكن لديها أيّ مانع، ضمّت أميرة شفتها كأنّها تفكر في ردّها ثم ابتسمت وهي تقول:

*"إذا أسرعي في تجهيز نفسك وأنا وأميري ننتظرك هنا".*

ما إن وصلا إلى السيرك، أصرّ خالد أنّه يريد بعض الفشار ويريد من أمّه أميرة أن تشتريه فهو من يديها ألذ، تركته برفقة لين حتى لا يفوتهم الدور عند التذاكر وذهبت هي لشراء الذرة والشيبس وبعض الألعاب حتّى ترى بسمته تنبع من الأعماق فهذا هو الشيء الذي يسعدها دائما، لكنّها ما كادت تبتعد قليلا حتى سمعت صوت لين تصرخ "خالد...خالد، أين ذهبت"، التفتت مسرعة راجعة إليهم، أمسكت لين من يديها تسألها ما الذي حدث.

*انشغلت قليلا حتى أدفع ثمن التذاكر فلم أجده، لكن لا بد أنّه قريب.*

أفلتتها وبدأت تركض في كل ناحية وهي تناديه حتى كادت عروق رقبتها تغادر جلدها من صوتها العالي، ثم لمحته يمسك يد رجل غريب، أثار ذلك خوفها، جرت بكل ما بقي فيها من طاقة وهي لا تزال تناديه، فالتفت إليها وسحب الرجل من يده وهو يشير إليه.

*إنّها ماما يا عم*

فتقدّما إليها سوية وما كادا يصلان حتى ألقت بنفسها عليه وجثت على ركبتيها تعانقه وتؤنّبه في الوقت نفسه، لكن صوتا مألوفا قطع عليها لحظتها.

*يبدو أنك حصلت على الاستقرار الذي كنت تبحثين عنه بسرعة، واضح ذلك من عمر ابنك.*

رفعت رأسها لتعرف من يكلّمها، كانت تريد أن تؤكّد بعينيها الشك الذي سربته إليها أذناها، بُهِتت ولم تجد كلمة تردّ

بها عليه، فالرجل الواقف أمامها يبدو صارما تخلو عيناه من الرقة، وتفاصيله وإن ابتسم عابسة، يشبه تماما مديرا ظالما.

*لا أعلم إن كنت أسميته خالدا لأجلي أم من أجل أخوك الصغير، أين زوجك؟ علي أن أعرف كيف استطاع معرفة الطريق إليك دون أن تتحججي بالاستقرار وتلك الشعارات الكثيرة.*

قامت وهي تتجاهل أسئلة خالد الصغير وهو يريد أن يعرف من هذا الرجل، وكيف تعرفه أمّه، وهل هو صديقها، وأنّه لطيف عليها أن تدعوه إلى بيتهم ليلعب معه، استجمعت قوّتها ثم مدّت يدها مسلمة على خالد، خالد الذي لم تعرف كيف لعبت الصدف بهما وجمعتهما مجددا هنا، وما كادت تقول حرفا، حتى جاءت طفلة صغيرة برفقة أمّها، تناديه فالعرض على وشك البدء، ولا تريد أن تتابع شيئا ووالدها ليس معها، سحب يده من يد أميرة وعاد إلى عائلته وهو يقول:

*أعدت الولد إلى أمه، هيا يا حلوتي حتى لا يفوتنا شيء.*

أمسكت أميرة خالد من يده واستدارت وهي تقاوم الدمعة كي لا تنهمر، وجدت خلفها لين تتابع كل ما قد حدث،

أخذت الولد من يدها فقد أحسّت بالحزن الذي أرخى ملاءته السّوداء على روحها فجأة، ورغم استغرابها لكلمات ذلك الرّجل إلا أنّها قرّرت أن تؤجّل فتح الموضوع معها إلى وقت آخر، وشغلت خالد عن أمّه حتى تتمكّن هذه الأخيرة من أخذ فسحة لنفسها بعيدا عن التكلّف والمجاملة.

وانتهى العرض وكلّ الأطفال يكادون يطيرون من فرط الفرح، وأميرة لم تنطق بحرف بعد، توجّهوا إلى السيارة راجعين إلى البيت بالرّغم أنّ المخطّط كان قضاء اليوم كلّه في التجوال سوية.

طول الطريق وخالد يعيد ما رآه على أميرة كأنّها لم تشاركه تلك اللحظات، مستغربا كيف يمكن ترويض حيوان بضخامة الأسد، وهي تفكّر كيف لها أن تروّض الذكريات التي اجتاحتها فجأة، يخبرها أنّه يريد أن يتعلّم المشي على الحبل مثل البهلوان وهي تفكّر في طريقها الذي مشت فيه ولا رجعة لها منه، ثم ارتفع صوته كأنّه تذكر شيئا مهما، أراد أن يصف لها دهشته من تلك النّار التي تخرج من فم ذلك الرجل الضخم عريض المنكبين الذي يرتدي فقط سروالا عريضا كسروال

علاء الدين، بينما هي مشغولة عنه بنار الوحدة وذكريات أيّام بعيدة عادت لتتربّع على قلبها.

ما إن دخلت إلى الشقّة، جلست على حاسوبها تمثل انشغالها بالعمل، وقد سرحت بعقلها بعيدا، كان لظهور خالد فجأة في حياتها تأثير كبير، ورؤيته وهو مع عائلته ذكّرها أنّها وحيدة بلا عائلة خاصة بها، حتى وإن كانت برفقة هذا الولد الذي تحبّه أكثر ممّا تحب الأمّهات أبناءها، لكن ثمّة شيء ناقص، عادت ذاكرتها لتلك الأيّام التي كانت تقضيها معه في السّكن المشترك، وأكواب القهوة والأحاديث الكثيرة، تذكّرت رسالتها وشعورها بالذنب على حالته، لكنه بخير وكانت تتوهّم فقط أنه سيتألّم لغيابها ويعيش على ذكراها، لم تكن تعلم أن الرجال يستعملون امرأة لنسيان أخرى على عكس النّساء اللواتي يعتزلن الرجال جميعا، ويعلن في كلّ مكان أن الرجال خونة، ثم استرخت على كرسيها وأغمضت عينيها تحاول استرجاع صورته فرغم ذلك الوجع كانت مشتاقة له، تمنّت لو أنّه كان أقلّ خشونة وعرّفها على عائلته، ودت لو أنّه سمح لها بالكلام لتحكي له عن خالد الصغير، ولو أنّها استطاعت أن تسأله كيف عاد مجددا إلى كندا، تبادرت إلى مخيلتها صورته القديمة

وهو بريء فيه من البساطة واللّطف الكثير ولم تنفك أن مسحت صورته الجديدة كل ذلك، ثم فتحت عيناها وقالت بصوت متحسّر "لقد تغير"، وجدت لين جالسة تتأمّلها، فبادرتها بالسؤال فارة من أن تكون هي التي تسأل.

*هل نام خالد؟*

*نعم أتعبه اللّعب اليوم.*

*جيد، أنا أيضا متعبة لكن تعبي من نوع آخر، تعب لا يسمح للنوم أن يزور أجفاني.*

*لا أدري إن كنت أستطيع أن أسألك عن ذلك الرجل، لا أذكر أنك أخبرتني أنك تعرفين أحدا هنا.*

قامت أميرة من على مكتبها وجلست بالقرب من لين، كانت مترددّة في أن تحكي، لكنّها في الوقت نفسه محتاجة لذلك، محتاجة أن تقول كلّ ما يجول بخاطرها، كانت تشعر بالضّعف، بالحاجة إلى أن يسمعها شخص آخر غير تلك المذكّرات الكثيرة التي تكتبها.

*هل تعرفين لمَ أسميت خالد بهذا الاسم؟*

*كلا، لطالما فكّرت أنه بسبب أخيك.*

*لا ...بل من أجل ذاك الرجل نفسه، كان معي أيام البعثة، صديقي وابني وأخي وكل من في عالمي من بشر، لمدة سنة كاملة كنا لا نفترق أبدا إلاّ أوقات العمل، تظاهرت كثيرا أن أمره لا يهمّني بذلك القدر العظيم وكلها فترة بسيطة وأنساه، لكن رؤيته اليوم جعلتني أراجع حساباتي، لم أستطع أن أنكر وأنا واقفة اليوم بين يديه أني أحببته وأنّه الوحيد الذي عرف الطريق إلى قلبي، وأنّني اشتقت إليه شوق الزهرة الذابلة لماء يروي مسامها، لولا الكبرياء والدهشة لانقضضت عليه لأعانقه، بالمقابل كنت أعتقد أنه هو أيضا كذلك، المهم افترقت عنه كما افترقت عن كل أحبتي بسبب مستقبلي وعملي، والواضح أنّه لم يقف حيث تركته، فقد تغير كثيرا.*

*لمَ لمْ توقفيه؟ لم لمْ تخبريه أن خالد ليس ابنك؟ كان واضحا أنّه قد تأثر لرؤيتك أيضا، عله أيضا لم ينسك.*

ضحكت أميرة لكلماتها ضحكة متكلفة ساخرة، ضحكة تبديها بكامل قوّتها كما عهدت نفسها، وواصلت الكلام بشيء من التهكم.

تأثر...لم ينسن...نعم معك حق لذلك هو قد تزوّج مباشرة وهو أب الآن، كل ذلك ليس مهما، على قول أمي الله يهنيه ويمنيه.

غريبة جدا أنت يا أميرة، رغم كلّ المشاكل التي أتى بها خالد لك، أولها أنّك لا تستطيعين العودة إلى أهلك، ولم تستطيعي بناء أسرة كما تتمنّى كل فتاة، وآخرها ما جنيته بسببه من خالد صديقك، ورغم ذلك مازلت مصرّة أن لا تخبري الناس قصته الحقيقية وأنّه ليس ابنك، في حين أنّ أمّه التي حملته تسعة أشهر وعانت آلام الولادة لم تتحمّل شيئا من أجله وتخلّت عنه.

آه إلى أين أخذت الحديث، خالد هذا هو الوحيد الذي يجعلني سعيدة، ليس سببا لمشاكلي، وقد عاهدته منذ أن خرجت من الميتم أنّه لن يفرّقنا شيء أبدا، وبعد ما الذي أتى بسيرة أمّه الآن، أنا أمّه، أمّا تلك فلا أحد يعرف من أية طينة عُجِنت، كيف طاوعها قلبها أن ترمي فلذة كبدها، لو جرت به الأقدار لامرأة بلا قلب، ماذا كان سيحل بهذا المسكين.

*معك حق، عجِنت من طينة الضعف والجبن، لم تكن مثلك هكذا تقاوم الدنيا كلبؤة جامحة.*

*قد يكون توقعك صحيحا، وأن الضعف قد جعلها تفعل ذلك، أو أنّها لم تستطع تحمل مسؤولية تربية طفل، فلنتقفل السيرة فأنا متعبة لا قدرة لي على الكلام.*

قامت تجر أقدامها لغرفتها، وألقت بنفسها في كفّ النوم الذي تلقفها، يلعب بها بين أحلام وردية يشاركها فيها خالد الصغير، وكوابيس كان بطلها خالد الكبير بوجهه المخيف يسخر من وحدتها، وأن نجاحها ببحوثها لا يساوي شيئا أمام نجاحه بعائلته، وتعود بها الأحلام لجلسة جميلة على بحيرة بها بط أبيض رائع، ورائحة القهوة تفوح من فنجان يحمله خالد ينتظر أن تشاركه إياه.

كانت ليلة متعبة، قامت بعدها وكل عظامها تشتكي الألم، على قول أجدادنا كأنّها أمضت ليلتها في حرث الحقول، خرجت بسرعة من البيت فقد تأخّرت عن عملها، ظلّ بالها مشغولا طول اليوم حتى عودتها إلى البيت، عادت كالمشتاقة للنوم.

بعد ولوجها البيت، غيّرت ثيابها وجلست بل ألقت بجسدها على الكرسي في سكون في الشرفة باحثة عن سكون نفسها، حتى قطع كل ذلك مشاركة لين لها.

*هل أنت بخير؟*

*أجل (عدلت جلستها ورسمت بسمة سريعة على وجهها) بخير، لم يكن يوما متعبا.*

*هل ارتاحت نفسك من البارحة.*

*لم يحدث شيء يستحق الذكر.*

*أريد أن أفتح قلبي أكثر وأخبرك آخر سر خبأته عنك حتى اليوم، ما عدت أستطيع كتمه أكثر، فكرت كثيرا البارحة طول الليل لم يغمض لي جفن.*

*سر؟ طبعا تفضلي، تعلمين أنّي دائما بئر سحيق بلا قاع لأسرارك.*

*أنا أعرف أم خالد الحقيقية.*

انتفضت أميرة من مكانها والدّهشة قد عقدت لسانها، ما الذي تقوله لين أبعد كل هذه السنوات تقول أنّها تعرف أمّه، هل هذا يعني أن خالد قد يعود لأهله، ثم وضعت يدها على يد لين، كانت ترتجف باردة كالثلج.

*دعابتك سخيفة، لا يمكنك إضحاكي بهذه الكلمات.*

*أنا لا أمازحك، سأخبرك بكل شيء، أريد أن تكوني سعيدة غير ملتزمة بأيّ وعد أو حمل ثقيل فقد قدَمت لي الكثير طول هذه السنوات، يكفي أنّك غيّرت كل تفكيري وشخصيتي.*

لم تجد أميرة كلمات تردّ بها على لين، لكنّها ركّزت أبصارها عليها وفتحت آذانها جيدا، كانت تودّ أن تعرف ما تخفيه بين طيات قلبها طول هذه السنوات، كما أن الفضول قد تسرّب إليها.

*هلّا شرحت لي أكثر عن ماذا تتكلمين.*

*سيدتي وصديقتي وأختي وسندي، كنت صادقة معك منذ أوّل يوم التقينا فيه لكنّني لم أخبرك كل شيء، أتيت إلى كندا بهدف دخول الجامعة، أرسلني أهلي على نفقتهم الخاصة،*

لكنّني لم أكن أحبّ الدّراسة ولا حتى التخصص الذي اختاره لي والداي، تركت الجامعة وبقيت أصرف من النّقود التي كان يرسلها أبي كل شهر، حتى فاجأتني الجامعة بأن أرسلت ايميلا لأبي تخبره أني لا أرتاد الجامعة وأنّه قد تمّ فصلي، خوفا منه لم أعد إليه بل بحثت عن عمل وعاهدته أنّي سأتخرّج من جامعة أخرى لكن بتعبي وجهدي ومالي، بيد أنّني لم أتعوّد أن أعتمد على نفسي، لم ألق نفس التّأهيل الذي جعل منك امرأة قويّة، كل ما في حياتي من تخطيط أهلي ورعايتهم، وجدت عملا في حضانة للأطفال كما كنت قد أخبرتك، بعد فترة تعرّفت فيها على رجل يبدو جد مثقف و راقي، يحضر طفلة معه كل يوم يقول أنّها ابنة أخته المطلقة التي تقيم معه، وقد أبدى إعجابه بي و وعدني أنّه سيتزوجني ويجعلني سيّدة ثرية، ولأنّني ساذجة صدقته وسايرته في كل ما أراد، ونتيجة لذلك حملت بخالد، بمجرّد أن سمع أنّي حامل تخلّى عنّي وأنكر معرفته بي، وبعد تقدم فترة الحمل فقدت عملي بالحضانة، لم أستطع الاحتفاظ بطفلي ولا حتى جعل والده النذل يعترف بأبوّته، فتركته عند عتبة بابك.

لا أصدّق ما تقولينه، طول هذه الفترة وأنت تخفين عنّي حقيقتك، لكن لمَ كنت بهذه الخسة، لست أحسن حالا من أبيه، كيف تتخلين عن فلذة كبدك، ولماذا عتبة بابي أنا بالذات؟

الشقة التي كنت آتي إليها مع ذلك الخبيث قريبة جدا من هنا، وأذكر مرّة أنّي اصطدمت بك في الطريق التفت إليك كي استسمحك عذرا لكنّك لم تنتبهي وأكملت طريقك، فعبرت عن غضبي بلا مبالاتك بقولي له أنّك متعجرفة بكثير من الغضب، فأخبرني جيم أنّك عربية صعبة المراس، وأنّك تعملين معه في نفس الشركة، فهذه المنطقة السكنية خاصة بشركتكم، وبمجرّد أن راودتني فكرة التخلي عن الطفل تذكرتك، فبم أنّني عربية مسلمة أردت لابني على الأقل أن يكون مسلما، خطرت ببالي لا أدري لم فكّرت أنّك ستكونين أمّا أحسن منّي، ربّما لأنّنا نحن العرب دائما نستمع إلى صدى قلوبنا وحمدا لله أني فعلت، سألت العامل بالسوبر ماركت عن عنوانك، كان سهلا أن أستطيع وصفك وأن يتعرّف هو عليك، فالجميع هنا يراك العربية المتعجرفة، مع أوّل ساعاته في هذه الدنيا أحضرته إليك، وبقيت على مسافة قريبة أراقب ما يحدث معك، كاد قلبي يتمزق عندما سمعتك تقولين لسائق سيارة

*الأجرة أنّك تودين الذهاب لأقرب ميتم، وطرت فرحا عندما عدت به للبيت، أمّا أن تطلبي مربية فلم يكن في الحسبان غير أنّه الباب الذي سيجمعني مع ابني دون أن ألام على شيء.*

كان قول كل شيء دفعة واحدة صاعقة كاد عقل أميرة ألا يتحمّلها، ضربتان قاضيتان في يومين متتالين، خالد من جهة ولين من جهة أخرى. لم تستوعب كيف يمكن أن يكون ما تقوله لين صحيحا، تركتها جالسة تريد أن تبرّر وجهة نظرها وكلاما كثيرا لا زال باقيا في عينيها ورجفة يديها، دخلت غرفتها وأغلقت الباب، أحسّت أن ما سمعته لحدّ الآن كاف جدّا حتّى تحسّ بالخداع، بقيت تلوم نفسها كيف لم تحس أبدا أن لين هي أمّه، كيف كانت ساذجة لهذه الدرجة، ثم عادت وتعاطفت مع قصتها وأنّها كانت ضحية أهل لم يجعلوا من ابنتهم قوية ودفعوها بين الذئاب تنهش جسمها، بدأت تهدأ وتفكّر برويّة علّها تعرف ما الخطوة التالية كيف يمكن أن تصلح الأمور، ويعود كل شيء إلى مساره الصحيح، دون أن تفقد خالد ولا حتى صديقتها لين رغم كل ما بدر منها.

ثم غفت على كرسيّها من التعب، ولم يغمض للين جفن طول الليل، قضت ساعاته المظلمة في جمع ثيابها وثياب ابنها،

مقرّرة أن تترك البيت ولا تثقل بعد اليوم كاهل أميرة، كانت تودّ أن تغادر دون أن تشعر بها لكن المشكل أن خالد ينام في نفس الغرفة معها، خبّأت تلك الحقائب في شرفة البيت وعزمت أن تنتظر خروجها للعمل وبعد ذلك تختفي من حياتها نهائيا حتى تستطيع أن تعيش كأي شابة، وتؤسّس عائلتها الخاصة، وإن شاءت حتى العودة إلى أهلها.

استيقظت أميرة على صوت المنبه، وصداع عظيم قد أحاط برأسها، بمجرّد أن فتحت أعينها جيدا، اتّصلت بالمسؤول عن شؤون العمال لتطلب إجازة ليوم آخر بسبب المرض هذه المرّة، أغمضت عينيها مجدّدا ليمرّ كل ما حدث أمامها، فتحتها مذعورة، قامت من الكرسي برفق وتركت الغرفة فخالد لا يزال نائما، وكالعادة كانت لين تحضّر الفطور، ألقت عليها التحية الصباحية ثم طلبت منها أن توافيها بفنجان قهوة إلى البهو فهناك أمر لا بد أن يناقشاه سوية فهما لم تكملا الحديث بعد، فتحت حاسوبها لتطلِع على ما وصلها من رسائل وتردّ على الأهمّ منها، ولم يمرّ إلاّ وقت بسيط حتى أقبلت لين وفي يدها صينية بها فنجان قهوة وكوب ماء.

*سأنهي ما بيدي وآتي إليك.*

قالت أميرة ذلك وأقفلت كل شيء قامت مسرعة إليها، تخاف أن تفر منها الثواني دون أن تحلّ الموضوع.

*رغم أنّني لم أستطع التركيز جيّدا مع كلماتك بالأمس، لكنّني أذكر أنّك قلت إن أب خالد يعمل معي، هل تذكرين اسمه الكامل؟*

*نعم، جيم براون أذكر أنّه كان عاملا في العلاقات العامّة إن لم يكذب علي في هذه أيضا.*

*لا لم يكذب، مازال موظّفا هناك إلى اليوم، إذا الموضوع سهل، سأتحدّث معه بروية بغية أن نحل القضية دون شوشرة ونقوم بتصحيح هوية لخالد ويسجله على اسمه، وإلاّ سأرفع قضية إثبات نسب، وهكذا أيضا الموضوع سهل، تحليل بسيط يثبت قولك وتجبره المحكمة أن يسجله على اسمه.*

ذهلت لين لما سمعته، لم يخطر ببالها أبدا أن يكون الأمر بهذه البساطة، لكن الفكرة قد أعجبتها لم تكن خائفة من تهديدات جيم السابقة، كما أن أميرة ستقف بصفّها وليست وحيدة حتى يستطيع استغلالها مثلما فعل من قبل عندما كانت البنت المدلّلة

الضعيفة الساذجة، وأجّلت فكرة رحيلها حتى تعرف نتائج ما هن مقدمات عليه.

حملت أميرة هاتفها واتّصلت بالشركة، وطلبت من الاستقبال وصلها بجيم لتكلّمه، طلبت منه موعدا سريعا في نفس مساء ذلك اليوم، أخبرته أن الأمر شخصي ومهم، وافق دون أن يفكّر كان يظنّ أنّها قد قبلت أخيرا أن يتقرب منها، قال أنّه يمكن أن يلتقيا بعد ساعة في مطعم قريب من المجمع السكني حيث شقتها.

جهّزت نفسها كما يجب ولبست وجها صارما، وجها تستطيع أن تغلب به ذلك الجبان المستغل، واتّجهت إلى حيث موعدهما وأخذت معها صورة لخالد ولين، كانت تودّ أن تسكته وتضعه تحت الأمر الواقع فلا يجد مهربا سوى الرضوخ.

خرج جيم من مكتبه مسرعا مرّ بطريقه بمكتب شؤون الموظفين وطلب إجازة ساعية، وركب سيارته وقادها كالصاروخ حتى لا يتأخّر على موعده، فكيف تطلبه أميرة التي لا تكلّم أحدا وتريده في أمر خاص ولا يلبيها، لم يمض وقت

طويل حتى كان في المطعم ينتظر قدومها، وهي بدورها لم تتركه ينتظر كثيرا، ولم تطل معه المقدمات ودخلت في صلب الموضوع مباشرة، وألقت بصورة لين على وجهه وروت له ما سمعته منها، صدم بما قالته حتّى أنّه كان قد نسي أمر تلك الفتاة العربية فقد مرّت سنوات على تلك الحكاية، حاصرته من كل الجهات لم يجد مفرا من الخضوع لما تريده.

هو من ذاك الصنف من الرجال الذين يدوسون تحت أقدامهم الضعفاء، لكنّهم ينحنون بذل أمام الأقوى، يخضعون له دون نقاش، غير أنّه اشترط أن يظل الموضوع سرا فهو يخاف على سمعته، ما إن سمعت شرطه عرفت أنّه سينفذ كل ما تريده خوفا من الفضيحة فزادت هي أيضا شرطا آخر أن يتزوّج لين ويطلقها حتى يكون خالد ولدا شرعيا وتساعد لين في تنظيف شرفها إن استطاعت العودة إلى أهلها مستقبلا وحتى يكون لها حقّ النفقة لتربية ابنها، حاول المراوغة والخروج من المسألة منتصرا لكن مجرّد نظراتها كانت تخيفه، خفض رأسه من الذل بعد أن كشفت أمره ووافق على كل ما طلبته مؤكّدا أن عليها أن تبقي الموضوع سرا، وأنّه لن يعترف بهذا الولد إلاّ على الورق ولن يكون أبا معنويا له، وقتها عادت بكرسيها إلى الخلف

وقامت وهي تردّد أنّه لن يتشرف خالد بأب مثله وأنّه لو لم يطلب ذلك لطلبته هي، مشت قليلا مبتعدة عنه تاركة إياه مصدوما لا يعرف أرضه من سماءه، ثم التفت إليه لتذكره أن عليه الإسراع وأخذ موعد من البلدية لعقد القران وإتمام باقي الأمور المتفق عليها.

عادت إلى المنزل منشرحة الوجه عكس ما غادرته عليه، وألقت بأخبارها المفرحة على لين التي لم تتمالك نفسها وحضنتها وقبّلت جبينها، لم تتوقّع يوما أن هذا يمكن أن يحدث، وأقرّت أنّها كانت جبانة جدا فيما مضى وإلاّ لكانت أميرة لم تعش كل هذه المشاكل ولكانت هي الأخرى قد عاشت حياة عادية رفقة ابنها بكرامة ولم تلجأ للحيل، أو أنّها حتّى لم تصل لمرحلة إنجاب طفل من العار لو فقط احترمت الخط الذي كان قد رسم لها ومشت عليه مصمّمة على النجاح، تأثّرت لدرجة البكاء، هدّأت أميرة من روعها وأخبرتها أنّها فعلت ذلك من أجل خالد، فهي تريد له حياة كريمة لا يعيقه فيها شيء، أمّا بخصوصها فهي لا تزال غاضبة ممّا بدر منها، فلم يكن يجدر بها خداعها كل هذه المدّة، صحيح أنّها تفهمت خوفها في الفترة الأولى، لكن صداقتهما كانت قويّة لتبدّده،

أنزلت لين رأسها شاعرة بالذنب والألم لكلمات هذه السيدة التي غمرتها بجميلها، وغمرت ابنها بالعطف والحنان والآن بالحياة اللّائقة.

انزوت عنها تفكر في طريقة تردّ لها جميلها هذا وتساعدها أن تكون سعيدة هي الأخرى ولو للحظة فقط، فكّرت ما الشيء الذي قد يوازي فرحتها بأخبارها، تقلب الأيام الفائتة علّها تجد ما يساعدها، كانت مصرّة أن ترسم و لو خطا رفيعا من السعادة في حياتها تذكّرها به إذا افترقتا، تذكّرت بعد مدّة من الذهن الشارد خالد صديق أميرة، وخطر ببالها أنّه قد يستطيع مساعدتها في ردّ دينها لها، لكنّها لا تملك أيّ معلومة ولو صغيرة عنه غير أن اسمه خالد، ثم صمّمت أن تركّز كل جهدها للعثور عليه وشرح الموقف له، علّه يرجع صديقا كما كان سابقا.

أصبح الموضوع يشغلها طول الوقت، أياما كثيرة لا يكاد يفارقها تريد حلاّ لذلك، لابدّ أن يكون هناك مخرج يوصلها إليه، الفرحة التي كانت تقفز من عيني أميرة وهي تحكي عنه تستحق أن تعصر مخّها لتجده، إلى أن تذكّرت شيئا آخر لا بد أن يكون هو الوسيلة الوحيدة لتصل غايتها، مذكّرة أميرة فهي

تكتب فيها كل التفاصيل التي قد تعينها على خطتها، ستجد اسمه الكامل هناك أكيد أو أي شيء آخر يجعلها سعيدة، ثم تراجعت عن هذه الفكرة فكيف تتطاول على خصوصياتها، ثم عادت وتشجعت مرّة أخرى ففي الأمر سعادة أميرة لو أنّها نجحت في الوصول إليه وإقناعه، أصلا كل ما ستقرؤه هو اسمه الكامل فهو مفتاح الحل.

انتظرت حتى أقبل اليوم التّالي، وخرجت أميرة إلى عملها كعادتها فيخلو لها الجو، بدأت التفتيش بين أوراقها وملفاتها فوق مكتبها، محاولة أن لا تبعثرها حتى لا تكشف أميرة أمرها، إلى أن وجدتها داخل الدرج، أخرجتها وجلست هناك على كرسي المكتب وشرعت في تقليب صفحاتها، كانت لين تقرأ أميرة سطرا سطرا، فقد كتبت عن قصة زواج والديها التي حكتها لها سليمة، وكيف كانت فرحتها كبيرة بقدوم أخيها خالد، كتبت عن نجاحها في الدكتوراه وأنّها أشفت قليلا من غليلها وتلك النزعة التي تملكها حتى تكون في المقدّمة دائما، وحكت أيضا عن ألمها لفراقهم وشعورها بالذنب لإصرارها، ثم وصلت إلى فترة المنحة، كانت صفحاتها الأولى سعيدة، يملأها اسم خالد حتى يكاد يشغل كل السطور، لم تتمالك لين

نفسها وأخذت تقرأ بقية ما كتبته أميرة ولم تكتف كما قالت بمجرّد اسمه، حياة هذه المرأة كانت تستحق القراءة وليس عبورها مرور الكرام، طالعت كل ما حملته تلك السطور حرفا حرفا، فزاد إصرارها على أن ترسم ولو بسمة بسيطة على شفتيها.

أغلقت المذكّرة بعد إتمامها، تشعر بالفخر أن امرأة كهذه كانت صديقتها، ثم اتصلت بقسم الخدمات الهاتفية لتطلب رقمه منهم، وفي انتظار ردّ الموظفة كانت تتذرّع إلى الله حتى يكون مقيما بكندا وليس زائرا فقط، وقد أجاب الله دعاءها وأعطتها الموظفة رقمه، لم تضيع وقتا أبدا، أقفلت الخط من المكالمة الأولى واتّصلت به، كان كل ما طلبته منه هو لقاء سريع لهما، وأخبرته أن الأمر ضروري مستعجل، فوافق بعد أن عرف الفضول طريقه إلى قلبه، فرحت كثيرا لذلك وأعطته موعدا على الساعة السادسة والنّصف فذاك وقت وصول أميرة إلى البيت يمكنها أن تعتني بخالد حتى عودتها، واعدته في ذاك المطعم القريب من المجمع السكني، ورغم أنّه أخبرها أنّه يقطن في مكان بعيد إلا أنّه وعدها بالقدوم.

عادت أميرة إلى البيت في موعدها اليومي، وجدت لين جالسة قرب الباب قد تجهزت للخروج، سألتها عن وجهتها بطريقة من يسأل ليسأل لا ليعرف، فأخبرتها أنّها تحتاج بعض الأغراض من السوق، ساعة على أكبر تقدير وتعود، رفعت أميرة كتفيها كأنّ الموضوع ليس مهمّا ونادت على خالد حتى يعلم بعودتها التي ينتظرها بفارغ الصبر، بينما خرجت لين مسرعة حتى لا يفوتها موعدها.

وصلت المطعم وجلست على طاولة بقرب الباب حتى تراقب كلّ الداخلين إلى هناك وبقيت تنتظر قدوم خالد، كان الأمر صعبا قليلا أن تتعرّف عليه، لكنّها ركزت كل انتباهها لتجميع ملامحه منذ يوم السيرك، بمجرّد أن دقت ساعتها السادسة والنصف، دخل خالد يجول بنظراته بين الزبائن علّه يتعرّف على السيدة التي طلبته، لمحته لين فقامت بسرعة إليه مادّة يدها مسلمة مرددة اسمه، ابتسم إليها وجلس إلى طاولتها.

وجدت لين صعوبة في فتح الموضوع لكنّها تذكّرت ذلك الجميل الذي أسدته إليها أميرة، فخرجت الكلمات من حيث لا تدري، وحكت له كلّ تفاصيل قصتهما متجاهلة دهشته

لدرجة أن فمه قد فتح كالأبله، لم يكن يعرف خالد أ يصدقها أم أنّها قصّة خيالية من فتاة لا تعرفه ولا يعرفها، أتمّت لين كلامها بكلمات أميرة ليلة عودتها من لقاءهم الأخير، واعترافها بحبّها له، لم يعرف ما الذي يمكن أن يفعله الآن.

*بسبب جفاءها قرّرت أن أنجح في نفس البلد الذي نجحت فيه، وبحثت عن عمل بإصرار حتى أبلغ مرادي، وبعد فترة تزوّجت بأوّل فتاة جمعتني بها الصدف، كانت تعمل نادلة في المطعم الذي أرتاده عادة، تزوجتها ليس لجمالها أو رقتها ولا أيّ شيء بل فقط لأنسى خيبتي مع أميرة، لحسن حظّي كانت سيدة رائعة وقد رزقني الله منها بطفلة ملأت كل حياتي سعادة، لدرجة أنّي أحسست أني قد نسيت أميرة فعلا لولا لقائي بها يوم السيرك، وقتها فقط أدركت أنّي لا أزال أحبها لكنني في الوقت نفسه أحب عائلتي أيضا وطفلتي الصغيرة.*

*هدفي من هذا اللقاء أن أعيد لها صديقها فقط وليس شيئا آخر، فأنا أعلم أنّها لن تستطيع بناء حياتها على حساب تعاسة أحد، هي أصلا قد تجاوزت منذ فترة طويلة فكرة إنشاء عائلة خاصة بها خارج إطار خالد الصغير.*

هذا ما قالته لين حتى تضع النقط على الحروف، وهذا ما جعل خالد يطلب منها أن تصطحبه إلى بيتهما، كان في قلبه أشياء كثيرة ازدحمت تود أن تقال لأميرة بعد كل هذا الغياب، خرجا من المطعم حتى دون أن ينتبها أنّهما لم يطلبا حتى فنجان قهوة، شغلهما الكلام وأهميته عن الباقي. ركبا في سيارته وأكملا حديثهما فيها، وصلا دون أن يلحظا إن كان الطريق طويلا أو قصيرا، دقّت لين جرس الباب وهربت بعيدا حتى لا تلمحها أميرة، وقف هو عابس الوجه أراد أن يعرف موقفها قبل أن تعلم أنّه عرف ما عرفه، فتحت أميرة الباب وقد سبقها خالد الصغير ووقف بين قدميها، فوضعت يديها على كتفيه تنظر بذهول إلى خالد.

*كيف عرفت البيت؟ ولم أنت هنا، كل ما يقال بيننا قد قيل قبل سنوات.*

*لم تتغيري كثيرا، أتيت لرؤية صديقي الصغير، هل في ذلك مانع؟، هل ستسمحين لي بالدخول أم أعود من حيث أتيت؟*

ابتعدت عن الباب تاركة له المجال للدخول، أمسك هو خالد من يده ودخل يحدثه عن السيرك وألعاب الخفّة، وفي

داخل رأسه يرتّب ما سيقوله لها، ثم طلب من الصغير أن يتركهما لوحدهما قليلا، فهو يريد أن يُعلم أمه بكل مواعيد السيرك القادمة ويخاف أن ينشغل معه فيخطئ، هز الولد رأسه موافقا ودخل إلى الغرفة، التفت خالد بعدها إلى أميرة وقال جملة واحدة فقط، كانت كل ما استطاع الخروج من جمجمته والوصول إلى لسانه.

*أعرف كل شيء.*

انهالت عليه بالأسئلة، ماذا يعرف ومن أخبره، ولِمَ يعلِمها بذلك، فهو قد بنى حياته بعيدا عنها كما فعلت هي سابقا وانتهى الأمر، انتظر حتى أكملت ما بجعبتها ثم قال ببرود.

*أريد كوبا من القهوة، ردي القليل من التي قدمتها لك طوال تلك سنة.*

أحسّت أن عليها أن تهدأ مثله وتناقشه بروية، حضّرت كوبين من القهوة الساخنة وعادت إليه، وتركت له المجال ليتكلّم هو هذه المرة.

*كل ما أريده الآن أن تعود أميرة صديقتي إلي، أنا أعلم كما أخبرتك بكل ما حدث لك منذ افترقنا يوم توقيعك عقد نجاحك واستقرارك.*

*عجيب لكنّني لا أعرف شيئا عنك، خالد القديم لم يعد موجودا حتى في ملامحك.*

*مثلما أنت مسؤولة عن طفل وإن لم يكن من صلبك، أنا اليوم مسؤول عن أسرة أنشأتها فقط لأفر منك ومن ذكراك، زوجتي كاترين لم تكن تشبهك في شيء لذلك اخترتها، لكن طفلتي وحتى دون أن أعي ربيتها مثلك، ميرة نسخة صغيرة عن حبيبتي.*

حركة غريبة سرت في أمعاءها لم يكن حديثه متوقعا، وقع كلمة حبيبتي عليها كان ثقيلا، لكنّها قبلته بقلب رحب، وبابتسامة حنونة كمن أدرك أنّه السبب في كل ما يحدث الآن، لا يمكنها أن تلومه أبدا، ثم دعاها للغذاء حتى تتعرّف على زوجته وابنته، لم تبد إلاّ الموافقة والارتياح ولم يكن لديها أيّ مانع، ثم استقام واقفا حتى يغادر، بعد أن ترك عنوانه ورقمه لديها.

*ألن تبوح لي باسم من أخبرك؟*

*دعك من ذلك ليس بتلك الأهمية التي تعتقدين، هل يمكنني أن أعانقك كأخ؟*

ما كان منها إلاّ أن ضمّت شفتيها إلى الداخل، ثم استحال خداها حمراوان بلون الرمان، وفتحت ذراعيها له، كانت سعيدة بعودته إلى حياتها، طلبت منه وهي بين أحضانه الصفح عمّا بدر منها قبل سنوات، أمسكها من كتفيها وأبعدها عنه بشيء من القسوة ثم ضحك وهو يقول:

*لا أذكر أننا التقينا قبل اليوم إلاّ في كل خير.*

غادرها بعد أن أكّد على موضوع الدعوة، لم يكد يخطو خطوتين خارج البيت، حتّى عادت لين، فلمحت الفرحة تلمع في عيني أميرة، فغاب بذلك إحساسها بالذنب، وشعرت أنّها قد فعلت ولو شيئا بسيطا لصديقتها، وصديقتها هذه قد عرفت أنّها وراء كل ذلك، لم يكن يحتاج الموضوع ذكاء خارقا، ضمتها هي الأخرى إليها وشكرتها، حاولت بعدها كثيرا حتى تعرف منها كيف وصلت إليه لكن لين أبت إلاّ أن يكون الموضوع سرا بينها وبين نفسها، خافت أن تتهم بالخيانة مجدّدا.

بعد حوالي ستة أشهر، كانت كل أمور لين قد سُوِيت، وتم تعديل نسب خالد، وهذا راجع لعلاقات جيم الذي خاف أنّه إذا طال الموضوع أن يفتضح أمره، وحتى أنّها أصبحت تقبض نفقتها وفوقها زيادة منه حق سكوتها عنه، ممّا مكنها من استئجار شقة صغيرة في حي مخصّص للعرب هناك، ووجدت عملا كبائعة في متجر للحلويات بالقرب من بيتها، وحتّى أنّها بدأت في تجهيز أوراق خالد لدخول المدرسة، مخصصة يوما أسبوعيا تقضيه رفقة أميرة.

أمّا أميرة فعاد الفراغ إلى حياتها، رغم أن خالد كان يغتنم أوقات العطل ونهاية الأسبوع حتى يقضيه رفقتها وعائلته، لكنّه لم يكن كافيا لها، فقرّرت تقديم استقالتها من العمل والعودة إلى أهلها، فالحنين كان أقوى من أن تتحمله، ولم يعد هناك ما يربطها بكندا، حققت فيها كل ما صبت إليه ولم يسعدها، اشتاقت لوهران بشوارعها المزدحمة وضجيجها بدل الهدوء الذي يغلف كندا، اشتاقت أن تبدأ يومها بصوت سليمة وحضنها الذي يمتص كل مصاعب هذه الحياة، اشتاقت أن تركض فارة من لكمات خالد أخيها وهو يحاول إثبات أنه أصبح رجلا لتمسكه أخيرا من أذنه لتثبت بدورها أنّها الأكبر،

سافر بها الحنين لعمر وهو يحكي لها قصصا لا تسمعها إلاّ منه، وكلمة حلوتي وهي تفر من فمه لتسقي قلبها عسلا...

عرفت ولو متأخّرا أنّ السعادة لا علاقة لها بالمال والمناصب وإنّما بالحب والترابط وبالأسرة، فكما يقول المثل، جنة بلا ناس ما تنداس...

لن أكابر

بعد اليوم لن أكابر

ولأجل أيّ شيء

بقربك لن أغامر

ولغير عينك لن أسامر

أنت انسي ووطني وغناي

أنت ملِكي وأصغر رعاياي

أنت روحي وضوء عيناي

وعد بحق الحب

وطول هذا الدرب

وكل ما لك في القلب

بعد اليوم لن أكابر

ما دمت تستطيع أن تحتفظ بمن تحب، افعل

لا تلحق الحياة كثيرا فهي تشبه طفلا صغيرا، إن لم تفطمه عن الرضاعة لن ينفطم لوحده وسيطلب أكثر فأكثر حتى تغرق فيها.

إن ضاعت فرصة عمل، تعوض

أو أفلسنا، عادي من عمل سابقا لجمع المال يعمل مجدّدا ويجمع أكثر

لكن أن تفقد أمّا، أبا، أخا، حبيبا فلن تستطيع أن تجدهم متى شئت.

بعد أن تنهي هذا الفصل من الكتاب، قم واطبع قبلة على جبين والديك، عانق أختك، أخاك وأخبرهم أنّك تحبهم، اتّصل بحبيبك وقل له أن العالم كله لا يساوي لحظة بقربه.

ولمن فقدهم للأبد، اقرأ وردا يوميا من القرآن تواصل به معهم، ادعوا كثيرا أن يجمعك الله وإيّاهم في دار الخلد، في فردوسه الأعلى.

لا تكتم حبا قد يسرقه منك الزمن بسبب كتمانه وتصبح من النادمين.

أحبّكم...

# النهاية